

جبران خليل جبران

عجوبة النبي

ترجمة موازية للنصين الإنجليزي والعربي

د. ثروت عكاشه

دار الشروق

حديقة النبى

حديقة الثبسى
جبران خليل جبران

ترجمة موازية للنصين الإنجليزى والعربى :
د. شروت عكاشه

اللوحات المصوّرة :
جبران خليل جبران

صورة الغلاف وكافة اللوحات الإيضاحية :
الفنان صلاح طاهر

الإخراج الفنى :
مجدى عز الدين

الطبعة التاسعة ٢٠٠٠م

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٨ / ١٥٢٥٩
الترقيم الدولى : 3 - 0514 - 09 - 977 - I.S.B.N.:

حقوق الترجمة محفوظة للمترجم

© دارالشروق

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧
البريد الإلكتروني : dar@shorouk.com

الطبعة : مطابع الشروق بالقاهرة

إطالة على الحديقة عبر العصور

ما من شك في أن صدور كتاب «النبى» كان نقطة التحول الحقيقية في حياة جبران العقلية وفي توجيه طاقته الإنتاجية، فقد استمد جبران من تجاربه ومعارفه وآلامه ما ربط به علاقة الإنسان بالإنسان. وكان لابد له أن يتطور ويتسامى بعد ما أفرغ ما في جعبته من محن تعرّض لها في مختلف أطوار حياته. وحدّد جبران طريق غده بعد «النبى» فقرر أن يتناول علاقة الإنسان بالطبيعة في «حديقة النبى» وعلاقة الإنسان بالله في «موت النبى»، وكان عليه أن يهيئ نفسه لهذه المحاولة الكبيرة.

كان «جبران» في «النبى» معلّمًا يستخدم قالب «نيتشه» ولكن على طريقته الخاصة وبأسلوبه الخاص. وكان لابد له أن يهيئ نفسه كي يتمكن من تصوير علاقة الإنسان بالطبيعة فاقتضاه الأمر ثلاث سنوات من حياته لم يطق فيها صبرا حتى يخرج لنا «حديقة النبى» فشغل نفسه بإخراج كتابيه «رمل وزبد» و«عيسى ابن الإنسان». ولعل تأليفه هذين الكتابين كان جهدا عقليا ووجدانيا جديدا هيا لإصدار «حديقة النبى». على أنه مات قبل أن يصدر كتابه «موت النبى» فكان موته هو الكتاب الذي أراد أن يحدّد به علاقة الإنسان بالله.



واليوم ونحن نقدم «حديقة النبي» في طبعته الثامنة يعيننا أن نوضّح أن «جبران خليل جبران» كان في اختياره الحديقة، رمزا لعلاقة الإنسان بالطبيعة، مستعيرا أسلوب القدامى، ملهما بروح الشرق، مستندا إلى عوامل التطور التاريخي في التعبير والتصوّر والتصوير جميعا. فقد لعبت الحديقة دورا فعّالا في عقائد البشر وفي خيالاتهم وفي آدابهم وفي فلسفاتهم أيضا. «فبوذا» - كما تذهب العقيدة البوذية - تلقى الوحي وهو جالس تحت ظل شجرة، و«المسيح» عليه السلام ولد تحت جذع نخلة، ولما هاجر إلى مصر أنقذته «شجرة المطرية» من الأذى، و«محمد» صلوات الله وسلامه عليه أخذ البيعة من أنصاره تحت الشجرة. هذه الشجرة - وهي نبت من نبات الحديقة يفوح برائحة النمو ويوحى بالازدهار والترعرع - دخلت حياة الناس إذن مع عقائدهم، فأصبحت رمزا لما تتوق إليه نفوسهم من متع وما تقيش به صدورهم من آمال.

وفي عقيدة قدماء المصريين أن الحياة الأولى انبثقت من العدم، «فخرج آتوم^(١) من الماء ليجلس على برعم زهرة اللوتس وهي بدورها منبثقة من الماء». وفي عقيدة أوزيريس «استقر آتوم على الشاطئ بعد أن لفظه اليم فأظلته

(١) كانت مدرسة هليوبوليس الدينية تعتبر آتوم هو خالق الكون. وكان شو إله الهواء وتفينة إلهة الندى أول ما تولدا منه. وعنهما تولد جب ونوت وهما الأرض والسما، وعن الأرض والسما تولد أوزيريس وإخوته الثلاثة.

الشجرة، وكانت إيزيس^(١) قد عطرت الحديقة وزيتها بكل محبة.

وأحاطت الحدائق بقصور المصريين ومنازلهم، وامتدت الأشجار أمام «بيوت الخلد». . . مقابرهم، وزينا جدرانها بزخارف الزهور والأشجار، وفي عقيدتهم أن «البا»^(٢) كانت تحلق على هيئة طائر وتستقر فوق الأشجار، وترتوي من ماء البحيرة. كذلك تناثرت الحدائق في معابد الألهه حيث تنبت أشجار البخور التي تأتي بها السفن القادمة من بلاد بونت^(٣).

(١) إيزيس في العقيدة المصرية القديمة هي أخت أوزيريس وزوجته وحاميته من أعدائه الذين احتالوا عليه وأدخلوه في صندوق وأغلقوه عليه وتركوه فيه حتى مات. وكان أخوه سيث هو خصمه اللدود. وظلت إيزيس تبحث عن أخيها وزوجها إلى أن انتهت إلى جبل قرب بيروت. وحين ارتد الإله حيا تقمص شجرة خضراء غدت رمزا للحياة بعد الموت. ويقال في . . . أخرة إن إيزيس احتضنت جثة أوزيريس فردت إليها قوتها وأنجب منها حورس. وكانت ثمة معركة حامية بين سيث الشرير شقيق أوزيريس وبين حورس فقد فيها الأخير عينه وكان النصر لحورس [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية. د. ثروت عكاشة. لوجمان ١٩٩٠].

(٢) انتهى المصريون القدماء إلى الاعتقاد بأن جسم الإنسان من ظاهر وباطن، وأن الظاهر هو الجسم، وأما باطنه فقلب. أي عقل. ونفس وبهما حركة الإنسان. ورمزوا للنفس والعقل بطائر له رأس إنسان وذراعان يُظلل المومياة ماداً لها بإحدى يديه شراعاً منشوراً. وكانوا يسمون هذا الطائر الذي لا يظهر إلا عند موت الإنسان «با». [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية. د. ثروت عكاشة. لوجمان ١٩٩٠].

(٣) بلاد الصومال.

وعلى ضفاف النيل ازدهرت الحديقة، وعلى جدران
معابد الفراعنة في طيبة وفي الكرنك غرس تميمس الثالث
الأشجار التي جاء بها من آسيا.

وفي تل العمارنة أينعت الحدائق نابضة بالخضرة توشّيتها
الزهور والأشجار، وبين أسوار المعبد وجنات القصور
كانت الحديقة تنوّسّها الأنهار، وتتخلّلها حياض الماء،
وتحفّ بها أشجار النخيل والسّرو، وكروم العنب
والحمائل. وانتشرت الزهور والظلال في الحديقة لتقرّ
نفس فرعون، وتحقّق له المتعة التي كان ينشدها.

وفي أشعار الغزل المصري القديم كانت أزهار الحدائق
تتخلّل أفعال العشاق في مناجاة عذبة رقيقة: «إيه أيتها
الأزهار، منك يخفق قلبي، وبين ذراعيك تلين إرادتي،
ومن رؤيتك تستمد عيناى الضياء». ومن ذلك ما ورد على
لسان شجرة من أشجار الحديقة: «إني أزهى أشجار
الحديقة... أظلل الحبيبين عندما يسعيان إلى ظلّي وهما
سكارى من خمر العشق».

أما في بابل فكانت الحدائق المعلقة - المعروفة بحدائق
«سميراميس» - إحدى عجائب العالم القديم. وفي تلك
الحدائق جمع الملوك كل النباتات التي انشقت عنها الأرض
الطيّبة تكريماً «للعشروط» إلهة الخصوبة.

وفي ملحمة البطل «جلجمش» يستقبل الإله «شماش»
الأبطال في حديقته ذات الأشجار المحمّلة بشمار الفاكهة،
وكانت هذه الفاكهة ترمز إلى الأحجار الكريمة.

على أن تطور الجماعة الإنسانية، ومحاولتها الاتصال بسواها من الجماعات الإنسانية الأخرى عن طريق الغزولم تغيير من مكانة الحديقة، ولم تمسّ اتصالها بالعقائد والطقوس، وإن كانت قد غدت رمزا للدين والدنيا معا. فملوك بابل أنفسهم، وقد اتخذوا من حديقتهم رمزا لتكريم إلهة الخصوبة، رأوا فيها أيضا رمزا للسيطرة والفتح، فسرى في اعتقاد الناس أن امتلاك الحديقة معناه امتلاك الكون. وهكذا تطورت الحديقة من رمز ديني إلى رمز ديني ودنيوي معا.

وانتقلت الحديقة من الفراعنة إلى الإغريق، ربما مع فكرة خلود الروح. انتقلت في شكل حديقة مقدسة مسورة بجوار آلهة الخصوبة. غير أن الحديقة لم تصادف لدى الإغريق نفسا مهياة لتقبلها. فقد كان الإغريق مغرمين بالعقل. وكانت فلسفة الرواقيين^(١) صوفية زاهدة، فلما دخلت الحديقة باهرة زاهية براقاة كالدنيا، نددوا بها وتنكروا لها.

وكانت الحدائق عند الرومان تعبيرا عن سيطرة النظام على الفوضى عن طريق الخيال الهندسي الرياضي،

(١) مدرسة فلسفية أسسها زينون (٢٠٠ ق. م) أساسها أن الحقيقة مادية تسودها قوة توجيهها هي الله. وما دامت الطبيعة تسير وفق العقل فمن الحكمة أن يسير الإنسان وفق الطبيعة منصرفا عن ميل العواطف والأفكار التي تمحيد عن جادة القانون الطبيعي. وقد علم زينون في رواق، وإليه نسبت الرواقية [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية].

فاستشهد بها كونتليانوس في كتابه «علم البلاغة»^(١) حين ضاهي علم البلاغة في تنظيم الكلام بخيال مصمم الحديقة الرومانية في إخضاع الطبيعة للعقل البشري .

وفي الحديقة وجد الرومان متسعاً للتعبير عن أساطيرهم وعقائدهم . فأنشئوا فيها الكهف الذي زعموا أن «جوبيتر» كبير الآلهة قد قضى فيه الستين الأوليين من حياته ، كما أسرفوا في إقامة التماثيل والأركان بها ، خاصة ما كان منها متصلاً بإله من آلهتهم .

واقف الرومان في تنسيق الحديقة وتجميلها وتوجوا بها تلال روما السبعة ، فأعادوا لها سمة التعبير عن العقائد بعد ما كادت فلسفة الرواقين تمسخها ، وتركوا ضفتي الغدير للحدوريات «الناياد» رمز الرشاقة والجمال . وعندما كان صاحب الحديقة ورفاقه يتناولون الطعام والشراب في «المنية» - التي تتوسط الحديقة - كان يتملكه الإحساس أنه يعيش في عالم مسحور ، وأنه أصبح يشارك الآلهة اللهب والمتاع .

على أن هذه الحديقة الرومانية اندثرت حين تقلصت إمبراطورية الرومان وبادت خرافة «البحيرة الرومانية»^(٢) ، غير أن الحديقة لم تندثر من العالم ، وإنما ظلت مزدهرة في مملكة الساسانيين بفارس . فأخذ الفرس يتفتنون في

Rhetorica (١)

Marc Nostrum كان الرومان يطلقون هذا المصطلح على البحر المتوسط .

تنظيمها وتنسيقها رمزا لوحدة الإنسان والطبيعة . بل لقد أصبحت حدائق فارس قوة السحر في نفوس الناس ، فعن طريقها كان كسرى يمنح بركته للرعية ، وعن طريقها كان يؤلف بين مشاعره ومشاعرهم .

وقد اختفت تماثيل الآلهة من حديقة فارس التي اتجهت إلى التعبير عن حب الحياة والإغراق في الاستمتاع بلذاتها . وانقسمت حدائق فارس إلى أربعة أجزاء متساوية ، تفصلها قناتان متقاطعتان تقام عند تقاطعهما نافورة يجلس إليها كسرى ومن حوله ندماءؤه . وبات كسرى في نظر الناس - وهو سيدّ الحديقة وساحرها وباعث الحياة فيها - يمثل الخصوبة وقوة الخلق في الطبيعة .

على أن شتاء فارس كان قاسيا على الحديقة بينما كان كسرى معنياً بها أشدّ عناية . ومن ثم كان لا بد أن يجد طريقة ينقل بها حديقته إلى حيث تحتمي من قسوة البرد ، فابتكر فنانو فارس أساليبهم في نقل الحديقة من الطبيعة إلى داخل القصور بأن رسموا الحدائق على السجاد . وهكذا نشأ فن بارع لا يزال له أثره حتى اليوم ، فلقد كانت الصلة بين الملك والحديقة عميقة الأثر حتى سرى في عقائد ملوك فارس أن مُلكًا بلا حديقة مجرد من كل سلطان .

وجاء نشيد الأنشاد في العهد القديم ليشيع في الغرب أثر التصوّف الدائر حول الحديقة حين وصف الملك سليمان الحكيم شوليت وكأنها حديقة ، وإذا هو يترنّم بها قائلا :

«نزلت إلى جنة الجوز لأنظر إلى ثمر الوادي وأرى هل
ازدهر الكرم ونور الرمان . . . ارجعي ارجعي يا
شوليت . ارجعي ارجعي فننظر إليك .

«ما أجملك أيتها الحبيبة وما أشهاك في اللذات . قامتك
مثل نخلة . وثدياك مثل العناقيد . قلتُ أصعد إلى النخلة
وأمسك بسعفها فيكون لي ثدياك كعناقيد الكرم، وعُرف
أنفك كالتفاح، وحلقك كخمر طيبة^(١)» .

ولقد قيل في تفسير نشيد الأنشاد إنه رمز لاتحاد يهوه
والمسيح، وقيل إنه قصيدة عرس، ثم قيل إنه رمز للمسيح
وكنيسته أو المسيح والعدراء . غير أن ثمة فكرة أخرى
شائعة بالفعل تذهب إلى أن حداثق الأديرة المسيحية المغلقة
هي الرمز الذي قصد إليه سليمان حين تغنى بشوليت في
نشيد الأنشاد .

وفي عهد بني أمية تأثرت الحديقة العربية بادئ الأمر
بالحديقة الرومانية، ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين
تأثرت بالحديقة الساسانية . ولعب الخيال في شعب عريق
الخيال خصيبه دوره في الحديقة العربية، فجمعت بين
حديقة الرومان وحديقة الفرس، وبهذا غدت تعبيرا عن
العقل والروح والعاطفة والدين والدنيا جميعا .

أخذ العرب عن الفرس «الجانب الفردوسي» بما فيه من
أشجار ذات ظلال، وزهور ذات أريج، ومياه تترقرق

(١) ٦/١١، ٦/٧-١٠ توزيع أنسي الحاج .

سحراً للنظرين، وعن الرومان أخذ العرب الجانب المسرحي الذي اشتهرت به الحديقة الرومانية، كتماثيل الأسود في نافورة قصر الحمراء بغرناطة، وتماثيل النساء بقصر هشام في خربة المفجر، كما أخذوا عنهم المقصورة الحافلة بكل ما لذ وطاب، والخميلة التي يحبوها الصيف بنوره الأخضر خلال النهار. وأضاف العرب إلى هذه الحديقة الخطوط العربية المستقيمة المتناسقة، تعبيرا عما في نفس العربي من جنوح إلى التجريد.

هكذا افتتن سلاطين المسلمين وأماؤهم بالحدائق، فكانوا يعنون بحسن تنسيقها ويوفدون الرسل يأتونهم من أقصى البلاد بأندر الزهور. فعل ذلك خلفاء بني عباس وحكام بلاد الإسلام، وفعل ذلك الحكام الأتراك، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون حاكم مصر في عهد خلافة المعتمد والمعتضد صاحب بستان شهير في الفسطاط، انحنى عليه المؤرخون مثل المقرئ بالتأمل والوصف المسهب الطويل.

وفعل ذلك أيضا سلاطين المماليك الأتراك والشراسة، وقد تحدت المؤرخون عن ولع قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك في مصر بالزهور وعن بستانه اليناع في القلعة، وعن غرسه العديد من الحدائق في مدينة القاهرة. وكذلك فعل بابر التيموري فاتح بلاد الهند ومؤسس أسرة السلاطين المغولية الهندية حين أنشأ الحدائق تخفيفا عن جنده من قيظ تلك الأقاليم اللافح.

وللأستاذ لوي ماسينيون رأي في نظرة الحضارة الإسلامية إلى الحديقة، مقارنة بينها وبين النظرة الغربية إليها: «فهى في الحضارة الإسلامية على صورها المختلفة شرقا وغربا، في غرناطة ومراكش وبغداد وأصفهان، لها صفة الثبات والاستقرار اللذين يبعثان على التأمل وإطلاق الخيال انطلاقا يمتد إلى آفاق بعيدة حسية ومعنوية. والحديقة الإسلامية بهذا الوصف لا تتفق في شيء والحديقة الغربية وإن كانت كل واحدة منهما تضم ما تضمه الأخرى من أشجار وأزهار». وهو يحدثنا عن الحديقة الغربية منذ مولدها مع الإمبراطورية الرومانية وامتدادها حتى عهد آل مديتشي بفلورنسا ولويس الرابع عشر بفرساي، فيذهب إلى «أن الفكرة وراء تنسيق الحديقة الغربية كانت ترمز إلى السيطرة على العالم متخذة من تلك الحديقة نقطة الوسط أو المركز. . من أجل هذا رأينا خطوط المنظور في تلك الحديقة الغربية تمتد إلى مدى البصر، كما تعكس مياه الأحواض الأبعاد المترامية التي تحيط بها أشجار مشدبة تشديبا بالغ الدقة. وهذا وذاك كان يوحى إلى من يتطلع إليها بأن يستوعب الجهات الأربع المحيطة بها. هذه النظرة المنطلقة بلا حدود التي تملئها الحديقة الغربية كانت على الضد منها النظرة للحديقة الإسلامية التي كانت تحجب البصر عن أن يجاوزها إلى ما سواها من عالم خارجي، وقد تجمّع فيها كل شيء وليس ثمة شيء يُطمع فيه خارجها. وأكثر ما كانت تلك الحدائق الإسلامية في

الصحراوات ، تحتل منها حيزًا تبعث فيه الحياة بتلك الأنابيب من المياه الممتدة إليها ، ويحيط بها سور عال إمعانا في العزلة التي قصد إليها بإنشائها ، فليس ثمة بصر من الخارج ينفذ إليها ، كما أنه ليس في مقدور بصر من الداخل أن ينفذ إلى خارج تلك الأسوار . هذا إلى ما كنا نلاحظه في تلك الحديقة الإسلامية من تكاثف الأشجار شيئا فشيئا حتى إذا ما بلغنا الوسط كانت الأشجار أشد ما تكون كثافة . وفي الوسط الذي كان مكان الاستقرار والسكنية كان ثمة جوسق يقوم إلى جانب نافورة تتدفق مياهها ، وهو ما يشير إلى أن الطائف حين يبلغ هذا المكان يكون قد بلغ الغاية وعليه أن يقرّ ولا يسعى إلى غيره . ومن هنا كانت تلك الحديقة على النقيض من الحدائق الكلاسيكية والحدائق اليابانية ، فعلى حين كانت هذه الحدائق وتلك تهيبّ إلى نظرة انطلاقية كانت الحديقة الإسلامية تهيبّ إلى نظرة قابعة انعزالية .

وهذا الوصف الذي انتهى إليه ماسينيون عن الحديقتين الغربية والإسلامية برغم طرافته يمثل الواقع الظاهر لا شك في ذلك . لكن فاته أن الحديقة الإسلامية تعكس ما انتهى إليه وجدان رجل الصحراء ، فالخلفية الفكرية لماسينيون النابعة من احتكاك الإنسان الأوربي ببيئته الطبيعية وعمادها النظرة الانطلاقية التي أملت على مصمّم الحديقة أن يمتد بها صوب الأفق في تواؤم مع بيئته الغنية بالخضرة والنبات ، تختلف في جوهرها عن فكرة تصميم الحديقة الإسلامية

ذات الأسوار العالية حماية لها من البيئة الصحراوية الجرداء بقيظها وزوابعها الرملية، فتغدو من ثم واحدة وسط الصحراء. ولاشك أن هذا التباين في وجهتي النظر هو أمر شائق يدعو إلى التأمل والتحليل، لأنه يجلو الاختلاف بين الوجدان الغربي والوجدان العربي.

فعلى الرغم من أن ماسينيون قد تعمق في بحث الفكر الصوفي الإسلامي، إلا أنه فسّر وجود أسوار الحديقة الإسلامية العالية بأنها تكشف عن نظرة انعزالية قابعة، وغاب عنه أنها أقيمت لحمايتها من عوامل الطقس والبيئة. أما فيما يتصل بكثافة الأشجار في بؤرة الحديقة الإسلامية فمرد ذلك إلى سبب يتعلّق بنموّها وترعرعها حيث تحجب الأسوار عنها قدرا كبيرا من عوامل الفناء. وهكذا تكاثفت الأشجار في وسط الحديقة حيث الشمس والهواء والرياح الخالية من ذرات الرمال، وكان من الطبيعي أن يستقر الجوسق في قلب الخميلة.

وقد شغلت الحديقة فكر متصوّفي الإسلام أكثر مما شغلت فكر غيرهم من المسلمين، فهي مفزعهم الأول في الحياة الدنيا، وحلمهم الكبير في الآخرة. أولم ير جلال الدين الرومي أن كل ما في الحدائق من زهور ومياه وينابيع وأشجار هي تجلّي الجمال الإلهي والنموذج الأمثل للجنة العليا، وتنسم المتصوّفة في كل وردة نفحة من عطر الجنة، وتسمّع الصوفية في حفيف الورود إلى تسبيحها لله... «وإن ما من شيء إلا يسبح بحمده»، وكان ذو

النون المصري يعلّم مريديه أسرار هذا التسبيح الذي تشارك فيه الخليقة كلها قبل القديس فرنسيس الأسيزي بأربعة قرون .

ويُحكى عن المتصوفين الأتراك أن المتصوّف الشيخ سنبل أفندي طلب يوماً إلى مريديه أن يجمعوا بعض الأزهار لتزيين «الخانقاه» فإذا بهم يختارون أجمل الزهور على حين أتى الشيخ مركز أفندي بزهرة ذابلة معتذراً بأنه رأى الأزهار جميعها مشغولة بالتسبيح والحمد فلم يشأ أن يقطع وردة تسبّح بعطرها، ولا زنبقة تُذكّر بالسنتها التسعة، ولا نرجسة تحمد الله بعيونها الذهبية، فأتى بوردة خمدت فيها الحياة بعد انقطاع تسبيحها، فأقامه الشيخ خليفة من بعده .

على أن المتصوّفة قد جعلوا من الورد رمز الحقيقة نفسها، وعدّوه أجمل تعبير عن جمال الله وجلاله . وما قصة «العندليب والوردة» الشهيرة في الأدب الفارسي شهرة قصة «ليلي والمجنون» في الأدب العربي وقصة «فرهاد وشيرين» في الأدبين الفارسي والتركي إلا تعبير أدبي صوفي عن عشق الروح الإنساني للجمال الإلهي المطلق، ومعاناتها في هواها أسمى المحن حتى يأتي الموت ليحملها إلى محبوبها . ففي الحياة الدنيا يستحيل لقاء الروح العاشقة للجمال الإلهي المطلق .

على أن الحقيقة انعكست أيضاً على الشعراء العرب والفرس، كما انعكست على أصحاب الفنون والفلاسفة .

ففي الشعر الفارسي دعا الشعراء إلى التمتع بجمال الحديقة
قبل أن يدرك الإنسان الموت الرابض في أرجائها . . . قبل
أن تذبل الوردة ويكفّ البلبل عن التغريد . وإذا كان الشاعر
الفارسي قد اتخذ من الحديقة دعوة إلى التمتع بجمال الدنيا
والإقبال عليها ، فإن الشاعر الصوفي المسلم تغنى بالحديقة
وبالباستان على أنهما ملتقى العاشق والمعشوق ، أو الصوفيّ
والحقيقة . . . ملتقى روعي يخفّف عنده ما في نفسه من
العشق الإلهي .

وبينما نجد عمر الخيام يقول :

بستان أيامك نامي الشجر ،

فكيف لا تقطف غضّ الثمر .

اشرب فهذا اليوم إن أدبرت

به الليالي لم يُعده القدر .

جادت بساط الروض كفّ الحساب ،

فنزّه الطرف وهات الشراب .

فهذه الخضرة من بعدنا

تنمو على أجسادنا في التراب^(١) .

بينما يقول «الخيام» هذا نجد البحثري وأبا تمام يكتفيان
بتصوير الحديقة في شعرهما تصويرا جميلا بارعا ، ولكن

(١) رباعيات الخيام ، ترجمة أحمد رامي ، ص ٤٩ - ٥٠ . الطبعة الثالثة
القاهرة ، ١٩٥٠ .

دون أن يخرجنا من التصوير إلى استلهاهم ما توحيه الحديقة من فلسفة في الحياة وفي السلوك . وربما كان ابن خفاجة والرمادي ، وابن زيدون ، وابن حزم من شعراء الأندلس هم الذين جمعوا بين العنصرين معا : تصوير الحديقة ، واستلهاهم ما توحيه من فلسفة وسلوك ، وإن كانوا قد اكتفوا في تعرضهم للحب بالحب العذري المتسامي عن الإغراق في المتاع .

والواقع أن تأثر الشعر والفن بالحديقة كان مزيجا من حب الجمال ومن الفرحة التي يستشعرها من يأوي إلى الحدائق في بلاد تغلب الحرارة على أجوائها والقحط في أراضيها ، ومن التأثر بالفكر الصوفي السائد الذي ربط بين حدائق الأرض وجنة السموات رمز النعيم والخلود في الدار الآخرة .

وقد بلغ حب «الصنوبري» لحديقته وافتتانه بجمالها درجة الغيرة من الطامعين في ورودها اليانعة فقال :

ورد بدا يحكي الخدود ورجس	يحكي العيون إذا رأت أحبائها
ونبات باقلاء يشبه نوره	بلق الحمام مشيلة أذناؤها
والسرو تحسبه العيون غوانيا	قد شممت عن سوقها أثوابها
وكان إحداهن من نفع الصبا	خود ^(١) تلاعب موهنا أترابها
لو كنت املك للرياض صيانة	يوما لما وطئ اللثام ترابها

(١) الأثى الفاتنة .

وترتّم شعراء تركيا وإيران والهند بجمال الحدائق وما
ضمتّ من أزهار، وخلعوا عليها من الأوصاف ما خلعهوه
على أحبابهم من البشر. فوصف جلال الدين السيوطي
البنفسجّة بأنها: «سماوية اللباس، مسكّية
الأنفاس، واضعة رأسها على رُكبتها كعاشق مهجور».
ووصف المعتمد بن عباد الياسمين قائلا:

كانما ياسميننا الغض كواكب في السما تبيض
والطرق الحمر في بواطنه كخذَ عذراء مسّته عض

ورأى ابن المعتز في الورد:

بياض في جوانبه احمرار كما احمرّت من الخجل الخدود

وما أكثر ما بكى الشعراء سرعة فناء الورد، ورأى فيه
شعراء فارس كناية عن زوال الودّ والوفاء في الحياة الدنيا،
ومع ذلك شاع اتخاذ الأزهار رموزا للمحسوب، فالنرجس
عينه، والورد خدّه، والسرو قوامه المشقوق، وشقائق
النعمان ثوبه الحريري، حتى غدا الحبيب حديقة بشرية
عطرة غناء، وحتى صارت الحديقة نفسها منحة من جمال
الحبيب، في وردّها خدّه وفي نرجسها عينه وفي سروها
قوامه.

والتقط الفنانون خيط الإلهام فأخذ الرسّامون يصوِّرون
الأزهار على جدران المساجد والأضرحة، ومضى
النسّاجون يضمّنونها قماشهم النفيس. وكان الخطّاطون
أروع توفيقا حين أخذوا يدمجون الزهور في كتاباتهم،

فأبدعوا الخط الكوفي المزهر والخط النسخي السابح وسط الأوراق والزهور، وهو ما تمخض عنه فن «الأرابيسك»، الذي تتعاقب فيه الأوراق والزهور متتابعة في دوائر تضلّ فيها العين، وتترك عالم الطبيعة إلى عالم الفكر صاعدة إلى جنة السماء نحو خالقها ومبدعها الجبار. وهو نفس الدور الذي من أجله امتلأت جدران المساجد بهذه الزخارف المستلهمة من مكونات الحديقة لتصعد بالمصلي إلى الخالق وإلى تذكّر جنّات النعيم، والتي ليست الحديقة الدنيوية إلا رمزها المتواضع الفواح دائما بالعطر والمحرك للفكر صوب عالم السماء.

وعن العرب انتقلت الحديقة إلى الغرب عن طريقين: حكم العرب للأندلس، والحروب الصليبية. ففي الأندلس كانت الحديقة تعبيرا صادقا عن روح «الإسباني المسلم»، الذي اتخذ من الماء والورد رمزا لأحلامه وتأملاته في الدين والحب والجمال، وكانت النافورات، وأحواض الزهور، والقنوات، تنافس الزخارف البديعة التي تكسو الجدران في قصر الحمراء.

وتخيّل الغربُ الشرقَ وكأنه حديقة مترامية الأطراف... حديقة غامضة مسحورة يكسوها ليل أزرق صافي الأديم يجعل الحياة فيها أشدّ عدوية، والورود أزكى عبيرا والنجوم أقوى سحرا... يتخلل ذلك السحر الفتان شدو العندليب، وخرير مياه القنوات، وتنهّات الجوّاري. وهكذا استبدّ سحر الشرق وسره وغموضه برجل الغرب،

وانعكس هذا كله على إنتاج الشعراء وأهل الفنون، فأخذوا يتغنون بالشرق هربا من مادية الغرب المتجهمّة وما تنطوي عليه من جفاف وفراغ روحي، أو يقصدون الشرق كي يرتووا من ينبوع العلم والمعرفة .

وقد تغنى شعراء الغرب بحدائق المسلمين في الشرق التي هاموا بصور جمالها الخيالية المرتسمة في أذهانهم عبر قراءتهم لحكايات الصليبيين عن الشرق العربي، وما نقله شعراء التروبادور من شعر الأندلس، وعبر قراءتهم لشعراء فارس وخاصة حافظا والسعدي اللذين هاما بالورود وشبها المحبوب بأجمل الزهور .

أما في أوروبا فقد أوحى الحديقة بقصص الزهور، وشكّلت الورود عنصرا هاما من عناصر هذه القصص وخاصة في «قصة الورد» المعروفة^(١) .

على أن الحديقة في أوروبا وجدت أجمل تعبير عنها في

(١) «قصة الورد» هي قصة رمزية ذاعت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهي تكشف بأسلوبها الشعري الساحر عن صورة لقصص الفروسية في القرون الوسطى، وتحكي تنافس الفرسان في سبيل الوصول إلى قلب «سيدة القصر» . وقد أُلّف الجزء الأول من هذه القصة الشاعر جيوم ده لوريس في أوائل القرن الثالث عشر، على حين أُلّف الجزء الثاني جان دو مون في القرن الخامس عشر . وجاء الجزء الأول على غرار ديوان «فن الهوى» للشاعر أوفيد، وإن كان الهوى فيه عذريا طبعا لأخلاقيات العصور الوسطى . يروي فيه جيوم ده لوريس حلما ينشد فيه عشق وردة جميلة في بستان منيع، تساعد تارة على إدراكها وتمنعه من ذلك تارة أخرى صفات مجردة =

فن التصوير الديني، فاستعادت الحديقة المغلقة المسورة سمات جنة الله في أرضه، بيد أنها لم تعد «الفردوس الفارسي» الذي تعزله الأسوار عن العالم الخارجي، ويتغنى فيه البلبل بغرامه للوردة، والشاعر بعشقه للقيان الحسان. فقد انتزعها الباحثون عن الحب الإلهي من عالمها الخاص، فصوّرت العذراء وطفلها إلى جانب الزهور السماوية التي تُشيع في البصر حبوراً وفي حاسة الشم نشوة، وأشجار الفاكهة الحلوة المذاق، والموسيقى التي تنبعث من النافورات لتشتف الأذان.

= مجسّدة مثل القول الرقيق أو الحسد أو العفة أو ما إلى ذلك. فيدعوه فيه الكسل إلى الحديقة حيث الأشجار والورود والطيور، ليحاور شخصاً رمزياً كاللذة والحنان والثراء وإله الحب نفسه. وما يلبث أن يكتشف وردة جميلة يهّم باقتطافها، فيفرض إله الحب عليه شرعة الحب العذري. وتكلّل مساعي العاشق لاقتناء وردته بالنجاح تارة والفشل أخرى بتدخل شخص رمزي جديدة تحبط في النهاية محاولاته كما يثنيه العقل عنها. وما تلبث الشفقة وقينوس أن تعاواناه لنيل قبلة من الوردة. لكن الافتراء سرعان ما يطلق لسانه بالوشاية، ويضرب حصاراً حول الوردة، ويحيطها بسياج، ويكل حراستها إلى قهرمانة. غير أن جان دو مون يتخذ أسلوباً آخر لإتمام القصة مضمناً موضوعه أفكاراً ثورية جديدة يقلب فيها موازين المفاهيم والقيم مستخدماً الرموز نفسها، ولكن بهدف النيل من المرأة وفقاً للتقليد الأدبي الراسخ المعادي للمرأة خلال العصور الوسطى. وفي قصته تتتابع المصاعب في وجه العاشق، ويستمر النفاق [في صورة واهب] محاصراً للقلمة ومعاونا الافتراء في مهمته. ثم ما تلبث الطبيعة أن تتدخل، وتهبّ فينوس للنجدة، فتطرد الخطر والعار والخوف، وتفسح القهرمانة الطريق للعاشق كي ينال وردته الحبيبة.

وفي كتاب «رموز الشرق القديم» لوحة مأخوذة عن «پرنز» تمثل العذراء مريم تحيط بها حاشيتها من الملائكة، كما تمثل البستان ذا الأسوار والزوايا الأربع، والمعبد الدائري، والبرج والبوابة، والبئر، والنافورة، وأشجار النخيل والسرور. وهي أشجار الحياة - فلا غرو أن ذهب البعض إلى أنها رؤيا «الغبطة السماوية».

كل هذه الرموز كانت توحى بصورة الأنوثة في المرأة، كما تزيح الستار عن جمالها المتألق المتعدد السمات. وقد غزت تلك الرموز الشرق والغرب على حد سواء، وجعلت أحلام الرجل في كل مكان تتنفس من خلالها.

وكما تسرّب ذلك التأثير إلى الغرب عن طريق حكم العرب للأندلس، فإنه قد شاع أيضا خلال الحروب الصليبية وما خلفته من قصص رواها الصليبيون عند عودتهم إلى بلادهم، فكان لما شاهدوه في الشرق أثره العظيم في تصوير الحديقة عند الغرب، ويتمثل هذا الأثر كما أسلفنا في قصة الوردة التي كانت ترنيمة رخيمة تتغنى بالحب.

وسرعان ما سرت إلى إيطاليا اللهفة على تذوق لذة احياء والنهل من مباحجها، والاستمتاع بجمال الزهور وما يفوح منها. فغدت فلورنسا في منتصف القرن الرابع عشر عاصمة الفن حيث امتدت الحدائق على ضفتي نهر الأرنو. وفي كتاب «ديكاميرون» أو الأيام العشرة نرى بوكاشيو

يدعو صحبه إلى «الحديقة» كي يسترسلوا في رواية قصصه المشهور .

ثم انتقلت الحديقة بعد حملات فرنسوا الأول من إيطاليا إلى فرنسا، فانتشرت الحدائق حول قصور اللوار، وبدأ شعراء عصر النهضة في القرن السادس عشر يتغنون في قصائدهم بجمالها إلا أنهم تطلعوا إليها بعيون مترعة بذكريات الأساطير الإغريقية، فرأوا الحديقة زاخرة بالخوريات، مُصَيِّخِينَ السَّمْعَ إلى صيحاتهن الفزعة إثر مطاردة الإله بان^(١) لهن .

وأصبحت الوردة بالنسبة للشاعر رونسار رمزا لجمال المرأة الزائل حيناً، ورمزا لجمال الحدائق وعظمتها أحيانا أخرى، فقد كان يؤمن بأن كل جميل يستمد لونه وعييره وسناه من الوردة . وفي ذلك قال :

«الوردة عطر الآلهة،

والوردة فخر العذارى،

تهفو صدورهن إلى الورود المفتحة،

أكثر مما تهفو إلى تحفة من الذهب لا تقدّر بمال . . . »

(١) أنجب هيرمس إله الخصب عند اليونان « بان » الذي غدا بدوره إلهاً للرعاة والسيّادين في أركاديا، ثم انتشرت عبادته وكهنته في جميع أنحاء اليونان . وورث بان عن أبيه المرح فمضى يتجول في الغابات يراقص الخوريات ويعزف على القيثارة والمصفار أجزل النغم ويحسن التنبؤ وتفسير الأحلام، [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية] .

وغدت الحديقة في فرنسا - كما كانت في إيطاليا - وثبة
نحو الجمال ورغبة شديدة في خلق حياة سامية عمادها
الفن وسط الزهور والنافورات والحفلات .

ورأى شعراء الغرب في الحديقة المزدهرة تعبيراً عن
العلاقة الوثيقة بين الإنسان وبين الطبيعة التي ينشأ وسطها
ويكتسب بين أحضانها معاني الحب والارتباط
بالأرض ، حتى تحدث أحد شعرائهم إلى نفسه حديثه إلى
حديقة غناء :

أنت حديقتي الرفيقة الهدوء

فردوسي المُمعم بالزهور

فيه ألتمس الراحة والنسيان

وأوري إلى دنيا أخرى أبهى جمالا

أنعم فيها برخاء حرمتني إياه الأقدار .

وإذا كان التطور المادي قد أخذ يززع الكثير من القيم
العريقة في أعماق الإنسان ويحرف نظره بعيداً عن
الطبيعة ، إلا أن النفس البشرية لم تلبث أن استيقظت من
جديد بكل ما تنطوي عليه من حنين دفين إلى الطبيعة وقد
افتترّ ثغرها ثانية عن بسملة للحداثق والبساتين .

بات الحب في القرن السابع عشر وحي الأدب ، وعاد
ذوق العصر يتجه إلى تفضيل قصص الريف والخلاء . لم
تعد الحديقة المسورة هي الإطار الصالح للقصة ، بعد ما بدأ

المؤلف يؤثر عليها منظرا خياليا تنطلق فيه الغرائز ، وتمتزج فيه الحقيقة بالخيال ، ويستبدل بالأسماء الواقعية أسماء أخرى زاخرة بالجنان والذكريات ، مستوحيا ذلك من بعض المفردات العاطفية ، ومن هنا نشأ ما اشتهر في الأدب باسم «خريطة الحنان» . وكانت مادلين ده سكوديري [١٦٠٧ - ١٧٠١] هي أول من ذكرت هذه الخريطة المشهورة في روايتها «كليلي» ، حيث صورت ثلاثة أنهر تخترق ما أسمته «بلاد الحنان» وأطلقت على هذه الأنهار أسماء : «الهوى» و«التقدير» و«الامتنان» . وصورت على ضفة كل منها مدينة أطلقت عليها اسم «حنان» : «حنان» على ضفة الهوى ، و«حنان» على ضفة «التقدير» ، و«حنان» على ضفة «الامتنان» . فإذا شاء العاشق أن يتقل من مدينة «الصدائة الجديدة» إلى هذه المنطقة الساحرة ، فعليه أن يمر بقرى «الأشعار الرقيقة» و«رسائل الغزل» وغيرها ، أو أن يسلك طريقا آخر يقوده عبر قرى «الوداد» و«اللفتات اللطيفة» و«الشوق» وغيرها . أما إذا ابتعد العاشق عن هذا الطريق فقد يصادف قرى «الإغفال» و«الفتور» و«النسيان» لينتهي إلى بحيرة «الجمود» .

وفي منتصف ذلك القرن كان المذهب الكلاسيكي قد استقر وبلغ طراز الباروك أوجه . والثابت أنه لم يقض على الولوج بالطبيعة في قلوب الشعراء ، وإنما شاء أن يهذبها كما هذب العشق والعاطفة من قبل . وعندما خطط «لونوتر» حدائق فرساي انحصر كل همه في تنسيق الحدائق

وإشاعة التجانس والتناغم في أنحائها، فحوكها فتنة
للناظرين وسحرا يخلب الألباب، جمعت الزهور والمرمر
والبرونز، تحقها المياه المناسبة في القنوات لتؤلف عالما فريدا
بديعا. واستعان «لونوتر» في تزيين هذه الحدائق بالمنحوتات
التي زين بها القصر نفسه، لينشئ من القصر وحديقته عالما
مغلقا له قوانينه ورموزه الخاصة به. وفي أرجاء هذا العالم
الفريد وبين جنباته مثلت مسرحيات مولير، كما عزفت
لأول مرة موسيقى لوللي، فكان أن قام بين الفنون
والحديقة تأثر وتأثير: فرضت الحديقة على المسرح
النافورات والمزهريات المصنوعة من المرمر، وفرض المسرح
على الحديقة المرآت الجانبية لدخول الممثلين وخروجهم،
فضلا عن توافر المساحات الفسيحة حتى يستطيع الممثلون
القيام بأدوارهم في يسر، كما فرض عليها المسرح تنظيم
الإضاءة حتى يتسنى للمتفرج الاندماج في الجو الفني الذي
تفرضه التمثيلية. وهكذا صور القرن السابع عشر
الحديقة متعة للنظر وللعقل معا، فانتظمت أشجارها
واتسقت أزهارها لتصبح في الوقت نفسه انتصارا للعقلانية
على الطبيعة.

وعندما تنكّر القرن الثامن عشر قُرب نهايته للمذهب
الكلاسيكي تنكر أيضا للحديقة الفرنسية، ولكن ما لبث
جان چاك روسو ومعه جيله أن نادوا بالعودة إلى الطبيعة.
وحين أدرك الإنجليز أنه في الإمكان تنسيق الحدائق بعناصر
مستمدة من الطبيعة الحقيقية مباشرة، غدت الحديقة الصينية
«شاراواجي» نموذجا للحديقة المعاصرة.

ثم لم يلبث المصورون الإنجليز متأثرين بالمدرسة الهولندية أن سخّروا الفن لتسجيل الطبيعة كما هي ، فتدفّقوا على الريف يصورون ما يحويه من حقول القمح والمراعي المزدهرة والدروب المتعرجة ، مؤمنين بأن هذه المشاهد الخلّابة هي أركان الفن السّوي . ويات غرس الحديقة إيجازاً فنياً مثلما غدا رسمها إيجازاً فنياً من نوع آخر . ولم تعد الحديقة منظرًا مسرحيًا فحسب ينتظر وصول الممثلين ، بل نالت حقها بوصفها لوحة فنية مكتملة كما اعتاد أن يرسمها من قبل پوسان وكلود لوران خلال القرن السابع عشر .

على أن القرن الثامن عشر لم يكن عصر المؤلفات الفلسفية فقط وإنما كان أيضا عصر الموسيقى . ولقد تأثر مؤلفو الموسيقى في هذه العصر بجمال الحدائق تأثرا بالغاً ، يحس كل منهم أنه يكوّن وحدة لا تنفصل عن الطبيعة . فعبّر هايدن عن هيامه المفرط بالطبيعة في أربع من سيمفونياته ، أطلق عليها أسماء «الصباح» و«الظهر» و«المساء» و«العاصفة» . وليس عسيرا أن نتبين بين أنغام السيمفونية الأولى نشوة العاصفير عند شروق الشمس ، في حين نهتز لثبير العاصفة في السيمفونية الأخيرة . ويفيض أيضا قلب «موتسارت» بحب الطبيعة فنصغي بين ثنايا مؤلفاته الموسيقية إلى خرير المياه ونستشعر سحر الغابات وجمال الورود وجلال الحقول . إلى أن كان المذهب الرومانسي ، وكان جان چاك روسو أول من مهد الطريق

إليه ، فأفاد هذا المذهب من الولع بالطبيعة، إذ بعثت حماسة «جان چاك روسو» للطبيعة في نفوس معاصريه راحة ذهنية ونفسية بعد أن كادت ثورة العلم والفلسفة على الطبيعة تُخمد في نفوس الناس الإحساس بالشعر والعاطفة، بالرغم من حنينهم إلى الطبيعة، فالعلم ضرورة والفن ضرورة.

وفي أعقاب الثورة الفرنسية، وبعد حروب نابليون وما كابده الناس من أهوال عاد «شاتوبريان» يتغنى بجمال المراعي والبحيرات وضياف الأنهار، حتى لقد عزا عدد كبير من النقاد النجاح الباهر الذي صادفته قصته «أتالا» إلى لوحات الطبيعة «الإكزوتية» الرائعة التي احتواها هذا الكتاب أكثر مما عزوها إلى الموضوع نفسه.

وكان لشعر «لا مارتين» صدى حماسي عميق لأنه أعاد إلى القلوب خفقها النابض بالحياة، فحدثنا عن أشياء تبدو صمّاء جامدة، لكنها في الواقع تفيض حياة وخصوبة. ومن بين ما أنشده في وصف الطبيعة أبياته المشهورة:

«والجداول بمهادها الناضرة والظلال التي تكتنفها،

تجذبني إلى قضاء اليوم كله على ضفافها.

فتغفو روجي على خرير مياهها.

كما يغفو الطفل تهدده أغنية رتيبة».

وهكذا عادت الطبيعة موضوعاً رئيساً يستلهمه الشاعر أو الكاتب ويستوحي منه شعره وكتابات، وهذا هو ما هدى

«ألفريد ده موسيه» إلى طريقه الذي مضى يتحسّسه وهو غارق بين الخمر والنساء والحب، فاعتنق الرومانسية وعالج بها فنه مستلهما إياه من حواسه ومشاعره الخاصة. وحين عرف الرومانسية قال: «إنها نجم يبكي وريح تئن وليل يرتعش وزهرة تطير وعصفور يفوح أريجه. إنها ينبوع غير متوقّع ووجدان كسل ويثر يظللّه النخيل وأمل قرمزي وآلاف من أشكال الحب، وملاك ولؤلؤة ووردة الزيزفون البيضاء...».

كما عبّر مؤلفو الموسيقى في هذا العصر مثل شوبرت، وشومان، ومندلسن، وبرامز، وشتراوس، وغيرهم، في كثير من أغانيهم وموسيقاهم عن افتتان صادق بالطبيعة. ولعل هذا الافتتان كان امتداداً للنزعة المتحرّرة في تصميم الحديقة الإنجليزية على غرار الطبيعة خلال الحركة الرومانسية في أوروبا بعد تداعي نزعة فرض النظام في تصميمها. ولا يفوتنا أن نذكر أن الموسيقى العبقري «بتهوفن» قد استلهم هو الآخر سحر الطبيعة فألف «السيمفونية الريفية» تمجيدا للطبيعة، واستطاع فاجنر أن يعبّر بطريقة جليّة عن إجلاله لقوى الطبيعة، فأغلب اللوحات الموسيقية التي تضمّنتها دراماته الموسيقية كانت تعبّر عن الظواهر الطبيعية كالربيع أو الخريف، والنهار أو الليل، والفجر أو الأصيل، والنسائم أو الزواجع. فما أكثر اللوحات الموسيقية التي عبّر فيها عن هذا الوله الفياض، ومن بينها أغنية زهرة الزنبق في أوبرا «أساطين الشعر

الغنائي بنورمبـرج» ، وأنشودة حوريات الراين الخالدة في أوبرا «ذهب الراين» ، ولحن «همهمات الغابة» في أوبرا سيـجـفـريـد . كذلك مزج فاجنر الحركة والمناظر وأبطال أوبراته بالألوان في موسيقاه ، فإذا هو يكتب قائلاً إن «تريستان كان ذا لون بنفسجي . . . مثل زهرة الـليلك الـداكـنة»^(١) .

وهناك أيضاً «جُستاف مالر» الذي اشتهر باسم «مُنشد الطبيعة» . انطلق يستعير من الطبيعة ما يطلقه على الأجزاء الأولى من مؤلفاته الموسيقية من أسماء ، فهو يدعوها تارة : «يقظة الإله بان» وتارة أخرى «الصيف يُقبل» أو «من شفاه الورد» و«حيوانات الغابة تحدّثني» إلى غير ذلك من أوصاف . وقيل إنه كان يخرّ راکعاً عند مشاهدة الحقول الـيانعة وتندفق الدموع من عينيه حينما يرى شجرة تفاح تزدهر أو وردة تتفتّح . . .

غير أن انتصار الطبيعة ما لبث أن تعرّض لبعض الهزّات على أيدي بعض الكتاب والفنانين ، فإذا «ألـفـريـد دقـيني» يندد في القرن التاسع عشر بالطبيعة في قصيدته المشهورة «بيت الراعي» متهما إياها بالبرود والجمود . وتجاهل «بودلير» الطبيعة الحيّة لشيّد من خياله طبيعته الخاصة فيما رواه من شعر ، وحدّد حديقته بأنها «تلك التي نشيّد لها من

(١) كذلك عبّر فاجنر عن مياه الراين المتدفقة بلحن من مقام «مي يمول الكبير» . كما عبّر عن موسيقى النار المقدسة في أوبرا «الكيري بلهبها الأحمر الصارخ بلحن من مقام مي الكبير .

نزواتنا وأحلامنا»^(١). وأعلن «لوكونت دوليل» زعيم المدرسة البرناسية^(٢) أن على الفن والعلم أن يتعاونوا إلى أن يندمج كل منهما في الآخر. وكانت هذه الدعوة ثنائياً عن الطبيعة وميلاً إلى موضوعية التفكير في الإنتاج الفني.

وجاء نوع من المذاهب الواقعية ليشكك العقول في حق الطبيعة في أن تكون مصدر إلهام الأديب والفنان. فإذا «فلوير» ينادي بأنه علينا إذا تعلقنا بالطبيعة أن نتعمق ما نراه منها، بحيث تكون الطبيعة مجرد إطار يقدم الكاتب داخله إنتاجه الفكري. فقصة «مدام بوقاري» دارت أحداثها في الريف وقصته «سالمبو» دارت وقائعها في حدائق هاملكار بقرطاج، ولكننا لا نحس فيما يصفه - رغم روعته - أي انفعال للكاتب بالطبيعة في القصتين. فقد وصفها الكاتب كما وجدها لا كما أحسها، معتبراً أن إحساسه الشخصي أمر يتعلق به هو، وأن عليه أن يحترم إحساس قرائه بأن يرسم لهم الجمال في صدق ونزاهة وموضوعية دون تدخل منه.

(١) على أن بودليير كان يستعير صور الطبيعة وظواهرها في تجسيم نزواته الذاتية وفي تصوير عواطفه الحسية إزاء مفاتن المرأة.

(٢) البارناسوس جبل في اليونان كان مكرساً لأبوللو وربات الفن. وقد نشأت البرناسية الفرنسية سنة ١٨٣٠ على يد تيوفيل جوتييه كرد فعل لرومانسية فكتور هيغو وده فيني ولامارتين. وقد كرس البرناسيون جهودهم للشعر الموضوعي الذي ينتزع منه الكاتب شخصيته، وللشعر الذي كان يتميّز بوضوح أبياته وقوة تركيبه [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية].

وفي النصف الثاني من هذا القرن اشتعلت ثورة التصوير ضد المدرسة الرومانسية كما ثار عليها الأدب من قبل . ومع ذلك ذهب «مونه» الذي يعد بحق زعيم مدرسة التصوير الانطباعية إلى أن اللون والضوء فقط هما العنصران الرئيسان في تكوين اللوحة الفنية وتنسيقها ، فهجر الفنان الاستديو الرطب وأثر العمل في الفضاء الساطع على شواطئ نورماندي وعلى ضفتي نهر السين حتى يستطيع تسجيل الضوء المتألق على اللوحة . وبذلك عادت الطبيعة الموضوع المفضل عند المصورين ، وإذا رنوار ، وپيسارو ، وسيزليه ، يحاولون التعبير عن اهتزازات الضوء التي تتتابع على لوحاتهم بسرعة تتابع الأمواج على ضفة الغدير .

وعرفت الموسيقى أيضا هذه الثورة ، فظهرت الحركة التأثرية في الموسيقى خلال السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر على يدي «ديبوسي» الذي كان على رأس الرعيل الأول لهذه المدرسة . وبدلا من أن يصورَ المواقف العاطفية تصويرا مباشرا كما كان يفعل «ليست» ومن نهج نهجه من المؤلفين الرومانسيين ، مجده يحاول الإيحاء للمستمع بمشاعر معينة بدلا من التعبير عن هذه المشاعر مباشرة .

ولم تنحصر الحركة الانطباعية في فرنسا بل امتدت إلى ما وراء جبال البرانس وجبال الألب . فمثلها «ديفايا» في إسبانيا و«رسيبيجي» في إيطاليا . فما أكثر المقطوعات الموسيقية والأغاني التي ألفها «ديفايا» تحية للورد

والحدائق . ولعل الانفعالات الموسيقية التي خصّ بها ديفايا البيانو والأوركسترا في مقطوعته «ليالي في حدائق إسبانيا» أسطع دليل على هذا العشق الصادق، فهي تتصل اتصالاً وثيقاً بأمنية عزيزة على نفسه تبعث فيها ذكرى الحدائق الغناء التي تكسو سفوح التلال المطلّة على قصر الحمراء، أجمل بقعة في غرناطة، إن لم يكن في إسبانيا كلها.

أما رسبيجي الإيطالي فقد تغنى « بأشجار الصنوبر في روما» وأفرد لها قصيده السيمفوني الشهير بهذا الاسم، قائلاً إن الطبيعة عنده «لا تعدو نقطة انطلاق يستعيد بها الذكريات والرؤى، أما أشجار الصنوبر العتيقة التي تميز الطبيعة الرومانية، فهي إطار تليد لكل ما يجري في روما».

بيد أنه في عصر التكنولوجيا ونظرية «المادية» لم تعد الحديقة حقيقة ملموسة بل غدت أملاً في نفس الشاعر، وأمسى إنسان العصر الحديث متهيئاً لأن يتذوّق لذة الحياة حتى وهو في قطار سريع على نحو ما جاء في إحدى قصائد «فاليري لاريو» اومع ذلك فإن عشق الطبيعة لم يختف من الأدب ولم يندثر من القلوب، فكم ردّد «رومان رولان» في مستهل هذا القرن، كما ردّد «ليوناردو دافنشي» من قبل عبارته الخالدة: «اندمجوا في روح الطبيعة».

ومذهب الأدباء حين يتحدثون عن الحدائق في أدبهم يكاد ينقسم في رأينا قسمين : قسم منهم ديني النزعة وقسم آخر دنيوي النزعة . فمن هؤلاء الذين يتصفون بدينية النزعة وعرضوا للحدائق في أدبهم أدينا العملاق أبو العلاء المعري . وفي الغرب من هؤلاء أيضاً دانتى ، ولسنا هنا في مجال التعرض لاحتمال تأثر دانتى بأبي العلاء في حديقته أو أن التشابه بينهما كان من قبيل توارد الخواطر ، فهذا بحث آخر ظفر بدراسات مستفيضة . أما عن أولئك الأدباء الذين تمثلوا الحدائق عن نزعة دنيوية فمن أبرزهم أدينا الشرقي المعروف الذي نعرض له الآن وهو جبران خليل جبران .

فلقد أراد بحديقته فيما تُملي بنصوصها كلها دنيا أرادها آمنة مطمئنة وادعة مستقرة ، إلى غير هذا من تلك المعاني الجميلة التي يريدنا الأدباء لحياة رغدة طيبة لا شقاق فيها ولا عداء . فما أراد جبران الجنة كما شاءتها الأديان جزاء وثواب بل أرادها بمعناها الدنيوي من خلال نظرة متصوفة ، جمالا يزكي في النفس جمالا ، وإبداعا يثير في النفس إبداعا ، وصورة تطبع الناس على صورتها . تلك هي الحديقة الدنيوية التي أرادها جبران . وما أشبه حديقته بالمدينة «الفاضلة» التي تخيلها الفارابي وبنى عليها كتابه . وليس بمستبعد أن يكون جبران الشرقي قد تأثر بالفارابي الشرقي وجعل حديقته في مبنائها ومعناها من المدينة

الفاضلة للفارابي، مع الاختلاف الكبير في الخيال والفكر
والرأي والفلسفة.

* * *

وبعد، فلعلها لم تكن رحلة شاقّة ولا جافة تلك التي
تتبعنا فيها المراحل الفكرية التي مرّت بها ثقافة الإنسان،
واتصل خلالها وجدانه وعقله ووسائل تعبيره بالطبيعة أو
بالحديقة على وجه الخصوص. ولعلّه يبين لنا من هذه
الإطلاقة أن جبران لم يكن إلا أحد معالم هذه الإطلاقة في
الطريق الطويل الشاق الذي قطعتَه إلى غاياتها، وإحدى
الثمرات الناضجة للصلة العريقة الأصيلة بين الطبيعة
والإنسان. فلما أتيت هذه الثمرة أن تنعكس على إنتاج
جبران انسابت في حنان، جدولا يعبرُ عمّا في الطبيعة من
رحمة وتراحم.

ولقد حدّد هذا الانعكاس مكان جبران وموقفه من
الحديقة العالمية، فكانت «حديقة النبي» التي أخرجها لنا
أثرا فنيا رقيقا يرى تلك الجذور العميقة التي تربط الإنسان
بالطبيعة. إن جبران صاحب الدم الشرقي والطبيعة الشرقية
لم تكن به حاجة إلى أن يسعى إلى الشرق ليستعير منه
الانفعال بالطبيعة، لأن الشرق بروحه الفياض وطبيعته
الخلابة كان حيّا نابضا في قلبه. لهذا، نراه في «حديقة
النبي» ينصرف إلى مجرد التعبير عن صلة الإنسان
بالطبيعة، دون حاجة إلى أن تسبق هذه المرحلة مرحلة

انفعال بالطبيعة، لأن هذه المرحلة كانت شيئاً كامناً في تكوينه رابضاً في وجدانه .

لقد كان جبران في هذا الكتاب، كما كان في «النبى» معلماً، يحاول أن ينشر بين الناس التعاليم التي استمدّها مما اكتسبه في تجربته . وهو يستمد الحكمة كلها من الطبيعة، فالطبيعة عنده هي المعلم، وهي الأساس الذي تقوم عليه كل حكمة . وهو يعبر عن شدة ارتباط فلسفته بمظاهر الطبيعة، ملخّصاً في الوقت نفسه هذه الفلسفة بقوله : «خلّوا بين مَنْ يبغي الحكمة يلتمسها في الشقائق، أو في قبضة من صلصال أحمر» .

وجبران، لا يكتفي من الطبيعة بأنها أساس كل حكمة، وإنما يرى فيها كذلك أساس كل جمال . . .

وإنه ليستنكر أن يسري في بعض الأوهام أن فيها قبحا، وإنما لتسمعه في الحديقة يتساءل :

«أوليس هذا الذي لم تسع يوماً إليه، ولم ترغب يوماً في تعمق أسراره، هو الذي تسميه بالقُبْح؟ فإذا كان القُبْح شيئاً، فليس هو في الحق إلا الغشاوة تغشي عينيك، والصملاخ يسدّ أذنيك . وحذار أن ترمي شيئاً بالقُبْح يا صاحبي، فما القُبْح حقاً إلا الخشية تعترى النفس حين تحضرها الذكريات» .

ترى، هل كان جبران يردّ على «ألفريد دثيني» الذي ندّد بالطبيعة خلال القرن التاسع عشر، قائلاً في قصيدته المشهورة «بيت الراعي» :

«مكانك أيتها الطبيعة الجامدة

أو تتجدّدين تحت أقدامنا وفوق جباهنا

أترك آلهة أنت الأخرى . . .

. . . فتسخري من عابر متواضع ، هو في الحقيقة

سيدك؟»

أم تراه كان يصحّح ما رددّه بودليل بعد ذلك في قصيدته

«مشهد» حين قال :

أرى الربيع ، والصيف ، والخريف . . .

وعندما يعود الشتاء ، بثلوجه الممّلة ،

سأغلق الأبواب والنوافذ ،

لأبني قصور خيالي في ليالي ،

لأحلم بالآفاق الزرقاء ،

وبالحداثق ،

وبالنافورات تدمع على رخام شفاف ،

وبالقُبل ، وبالطيور تغرّد كل مساء وكل صباح ،

وبكل ما في الحب ، من براءة وبساطة . . .

أم كان يسخر من المدرسة «البرناسية» وزعيمها

«الكونت دوليل» ، والمدرسة الواقعية الشكلية وما كانت

تنادي به من وجوب اتجاه الأدب إلى وصف الواقع كما

هو؟ أم أنه أراد أن يقفنا على جحود هؤلاء وأولئك جميعا

حينما أخذوا يصورون لأنفسهم أنهم يستطيعون أن يستقلوا عن الطبيعة، وبالتالي أن يترقّعوا عنها، بل ويتجرّأوا عليها، فنسبوا إليها الجمود، ويصفوها بالقبح، ويصموها بالقصور.

مهما تكن الإجابة على كل هذه الأسئلة، فمن الواضح لنا أن جبران يؤكد شرفيته الأصيلة في موقفه من الطبيعة، ومن علاقة الإنسان بالطبيعة وخالق هذه الطبيعة، في تفاؤل سمح طيب يعكس نفسا صافية رقيقة. هذا بينما نرى الآخرين يشورون على الطبيعة في جحود، ولعل أوضح مثال لهم «الفريد دثيني» الذي عاش حياته على الأدعاء والاستعلاء ومرض التعاضم، ثم انتهت حياته في برج عاجي، فانعكس هذا كله على موقفه الغاشم من الطبيعة دون ذنب ولاجريرة.

وكما انبرى جبران يدفع عن الطبيعة أن فيها قبحا، كذلك نراه يمضي مؤكدا عدالتها، مدلّلا على أنها تسوي بين أفرادها، فعندما يسأله مريدوه عن طفيليات الحديقة، يجيب المصطفي:

«كلنا طفيليون يا صاحبي، ولسنا، نحن الذين لمجهد لنجعل العشب ينبض بالحياة، أرفع شأننا من أولئك الذين يفتنون من العشب بلا وسيط، وهم بالعشب جاهلون».

ويمضي جبران في دفاعه على لسان المصطفي، إلى أن يقول:

«إن كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو موجود، وكل ما هو موجود يعيش - في إيمان بلا حدود - على فيض العليّ المتعال» .

وكذلك يفعل جبران مع الجماد، فينبري مدافعا عنه في حماسة وقوة قائلا :

«أنت والحجر سواء، لا فرق بينكما إلا في نبضات القلب. ستقول إن قلبك ينبض أسرع قليلا من قلبه. أليس كذلك يا صاحبي؟ أجل، ولكن قلبك ليس في سكينته قلبه واطمئنانه» .

وجبران في «الحديقة» ينظر إلى الحياة من حوله نظرة متصوفة زاهدة، فيراها حديقة غير ذات أسوار. وكرمة لا حارس دونها، وكنزا مباحا ينال منه كل عابر، فيقول لمريديه :

«عيشوا نهباً لسرق السارق، وغشّ الغاشّ، وخداع الخادع. أجل! كونوا صيداً الخديعة وارتعوا في حباتها ولو سخر منكم الناس، فليس هذا كله بضائركم... إنكم عندها سوف تُشرفون من عليائكم وتبتسمون... عالمين أن الربيع سيوافي حديقتكم من بعد ليرقص على أوراق الشجر، وأن الخريف سيُقبل لينضج أعنابكم، مدركين أن أيديكم لن تخلو من الرزق ما دامت نافذة واحدة من نوافذكم تطلّ على المشرق، موقنين أن جميع من يعدّهم الناس أشرا را ولصوصا وغشاشين ومخادعين هم إخوانكم

في الحاجة . ولعلكم أنتم من زمرة هؤلاء جميعا في عين
أهل النعيم الذين يسكنون تلك المآينة المكنونة التي تسمو
فوق هذه المدينة» .

على أن طبيعة جبران الشاعرة الحاملة الفنانة لا تفارقه
لحظة واحدة . وتبدو هذه الطبيعة في دقته عند اختيار
تشبيهاته ، ورقته في استعمال ألفاظه ، والجرس الجميل
الذي يتردد في عباراته . فهو في ختام كتابه ينتهي حزينا
مؤثرا ، إذ يصور فراق المصطفى لمكانه الحبيب ، ثم وهو
يناجي الغمامة أخت روحه الشاعري الجميل :

«إيه أيتها الغمامة . . . يا أخت روحي ،

لشدّ ما أحبيتُ الدنيا ، وأحبتني الدنيا ،

فقد تمثّلت بسماتي كلّها على شفّتها ،

وانسابت دموعي جميعا من مآقي .

على أنه قد وقف بيني وبينها حاجز من السكون .

لم تشأ أن تقطعه ،

ولم أستطع أنا عبوره» .

هكذا يمضي جبران في التعبير ، رقيقا كميّاه الجداول ،
عميقا كظلال الشجر المسترخية في الوديان ، متألقا
كالزهور اليانعة ، وإنه ليستلهم حديقته ويستند إليها في
التدليل على علاقة الإنسان بالطبيعة . وتبدو هذه العلاقة -
عند جبران - مستمدّة من فلسفته التي تبدو في كل تأملاته :
الخلود ، ووحدة الكون ، والأصالة ، والقدم ، والبعث .

وإننا لنراه يربط بين الموت والحديقة كاشفًا عن نظرتة
الفلسفية إلى الحديقة بوصفها دورة الحياة المتصلة المتجددة،
فهي حلقة الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء، وهي
رمز الخلود والبعث، وإذا هو يجيب أحد حواريه حين
سأله عن كُنه الوجود قائلاً:

«في هذه الحديقة يرقد أبي وترقد أمي وقد سدّتهما
الثرى أيدي الأحياء، وفي هذه الحديقة تغيب بذور السنة
الماضية، حملتها إلى هنا أجنحة الريح. ولسوف يرقد في
الثرى ألف مرة جثمان أبي وجثمان أمي، وألف مرة
ستواري الريح البذور. ولسوف نُقبل معا بعد ألف عام
أنا وأنتم وهذه الزهرات إلى هذه الحديقة كما هي
الآن، فيتحقق وجودنا في حب الحياة، ويتحقق
وجودنا في حلمنا بالفضاء، ويتحقق وجودنا في
صعودنا إلى السماء».

وإننا لنرى جبران مؤمنا بأن دورة الإنسان في الحياة هي
نفسها دورة عناصر الطبيعة الأخرى . . . ينبت النبات،
وينمو، ويزدهر، وينضج، ويصبح بعد ذلك مصيره أن
يجد من يقطف ثمراته، لتطيب بذلك نفسه . . . وفي
حدود هذه الدورة يتطور الإنسان كما تتطور عناصر الطبيعة
ويتنقل من حال إلى حال، وهو مع ذلك خالد في طوايا
الزمن، باق في ضمير الكون . . كل ما أصابه أنه تحوّل من
صورة إلى أخرى.

على أن جبران لا ينسى وهو يتناول علاقة الإنسان بالطبيعة أن يعالج العديد من المظاهر الأخرى التي تكتنف حياة الناس، فيجرّد الناس من أردبتهم، ويردّهم إلى عناصرهم الأساسية الأولى، لينتهي إلى أن هذه العناصر الأولى أعمق وأقوى مما قد يكتنف وجودهم من مظاهر. فإذا ماتم له تجريدهم من هذه الأوهام، ربطهم بالطبيعة ربطاً قوياً محكماً، ونظر من وراء الطبيعة إلى خالق هذه الطبيعة سبحانه وتعالى. وجبران في هذا فلسفته الخاصة، فهو عن طريق هذه الرابطة يحمل الإنسان على حب الحياة والتمتع بمباهجها.

وقد أثرت إصدار هذه الطبعة الشاملة والأخيرة في ترجمة موازية تضم النصّين الإنجليزي والعربي متقابلين شأنها شأن الطبعة الأولى. ولقد كانت «حديقة النبي» آخر محاولة كبيرة لإحياء الحديقة في الفن والفلسفة وفي تأملات الناس... ولعلي بنقلها إلى العربية أصل إلى بعثها في وسائل التعبير، رمزا خالدا لما بين الإنسان والطبيعة من أسباب.

المعادي في ١٨ فبراير ١٩٩٩ .

ثروت عكاشة

جبران خليل جبران

مع حديقة النبي

ترجمة موازية للنصين الإنجليزي والعربي

د. ثروت عكاشة



المصطفى المختار الحبيب . . . الذي كان أوجَ
زمانه، ها هو ذا يؤوبُ إلى الجزيرة التي تلقتَه وليدا
خلال «تشرين» شهر الذكريات .

وفيما كانت سفينته تقتربُ من مُرساها استقام على
مقدمتها، وقد التفَّ به ملاحوه، وفي قلبه طربُ العائد
إلى دياره .

وتحدّث، وصوتُ البحر ملءٌ فيه، قائلاً: «تطلّعو!
هذي هي الجزيرة التي فيها وكُلدنا . بل هنا طرحتنا
الأرضُ، فإذا نحن أنشودة، وإذا نحن أحجية، وإذا
الأنشودة تعرجُ في السماء، وإذا الأحجية تستقرُّ على
وجه الأرض . وهل بين الأرض والسماء غير وجداننا
يقوى على أن يضطلعَ بهذه الأنشودة، ويبلغَ كُنْه هذه
الأحجية؟» .

ويُسلمنا البحرُ ثانيةً إلى هذه الشيطان، فما نحن إلا
موجة أخرى من موجاته نندفعُ قُدماً لنذيع حديثه .
ولكن أتى لنا أن نفعل هذا دون أن نحطّم اتساق
القلوب فوق الصخور والرمال؟

هذه هي شرعةُ الملاحين، وتلك هي شرعةُ البحر:



Almustafa the chosen and the beloved, who was a moon unto his own day, returned to the isle of his birth in the month of Tichreen, which is the month of remembrance.

And as his ship approached the harbour, he stood upon its prow, and his mariners were about him. And there was a home-coming in his heart.

And he spoke, and the sea was in his voice, and he said: "Behold, the isle of our birth. Even here the earth heaved us, a song and a riddle; a song unto the sky, a riddle unto the earth; and what is there between earth and sky that shall carry the song and solve the riddle save our own passion?"

"The sea yields us once more to these shores. We are but another wave of her waves. She sends us forth to sound her speech, but how shall we do so unless we break the symmetry of our heart on rock and sand?"

"For this is the law of mariners and the sea:



«إذا كنتم تشدون الحرية فلا مفر من عود إلى الضباب .
فكلُّ ما لا شكل له ينشُدُ أبدا شكلا ، وحتى هذه السُدُم
التي لا تُحصَى تودُّ لو أصبحت شموسا وأقمارا .
ونحن الذين طوفنا ما طوفنا ، ونؤوب الآن إلى هذه
الجزيرة في أشكالنا هذه الجامدة ، حتمٌ علينا أن يشتملنا
الضبابُ مرة ثانية ، وأن نعرف كيف كانت بدايتنا .
وهل هناك ما ستتنظمه الحياة ويتسامى إلى الذرى إلا
وتحطم على مهاد الهوى والحرية؟» .

«ولسوف نبقى أبدا جادين في طلب الشيطان ، علنا
نغني ويسمعُ الناسُ شدوتنا . ولكن ما بال تلك الموجة
التي تتكسر حيث لا أذن تسمع؟ ألا إن ما تهمس به
جنباتنا هو الذي يغذي ألما الدفين . وهو أيضا الذي
ينحت لأرواحنا شكلا ويصرف أقدارنا» .

هنا تقدّم منه أحد ملاحيه وهو يقول : «أيها المعلم .
لقد ألهبتنا شوقا إلى هذا المرسى ، وها نحن أولاء الآن
قد بلغناه ، بيد أنك لا تفتأ تتحدّث عن الحزن والأسى ،
وعن قلوب سوف تنفطر» .

فأجابه المصطفى قائلا : «أولم أتحدّث أيضا عن
الحرية ، ثم عن الضباب ، وهو حرّيتنا الكبرى؟ على
أني والألم يُثقلني قد سعيت أحجّ إلى هذه الجزيرة التي



If you would freedom, you must needs turn to mist. The formless is for ever seeking form, even as the countless nebulae would become suns and moons; and we who have sought much and return now to this isle, rigid moulds, we must become mist once more and learn of the beginnig. And what is there that shall live and rise unto the heights except it be broken unto passion and freedom?

“For ever shall we be in quest of the shores, that we may sing and be heard. But what of the wave that breaks where no ear shall hear? It is the unheard in us that nurses our deeper sorrow. Yet it is also the unheard which carves our soul to form and fashions our destiny.”

Then one of his mariners came forth and said: “Master, you have captained our longing for this harbour, and behold, we have come. Yet you speak of sorrow, and of hearts that shall be broken”.

And he answered him and said: “Did I not speak of freedom, and of the mist which is our greater freedom? Yet it is in pain I make

استقبلتني وليدا، كطيف الذبيح يسعى إلى قاتليه ثم
يجثو بين أيديهم».

وتكلم ملاح آخر فقال: «ألم تر إلى هذه الحشود
التي تعلقو سور البحر. لقد تنبأت في هدأتها حتى يوم
مقدمك وساعة مجيئك. ولقد خفوا إليك زرافات،
مدفوعين بحبهم لك، تاركين حقولهم وكرمهم
لينتظروك».

وتطلع المصطفى إلى هذه الجموع، قرير البال بما
أحسن من شوقهم إليه، لكنه لم ينسب بنت شقة.

وإذا للناس صيحة تشق الفضاء إليه، وإذا هذه
الصيحة تفيض بالذكريات وتجيش بالضراعة.

والتفت المصطفى إلى ملاحيه وهو يقول لهم: «وأي
شيء جئتهم به؟ لقد كنت صياداً في بلد بعيد،
وسددت في عزم سهامي الذهبية التي أعطوني إياها،
ولكنني عدت ولم تعلق سهامي بصيد. وما تبتعت
السهم إلى حيث رميت بها. ومن يدري؟ لعلها الآن
منتشرة بين شعاع الشمس إلى جوار أجنحة نسور
جريحة لا تهوى إلى الأرض. أولعل تلك النصال قد
وقعت في أيدي من هم في حاجة إليها. . . من أجل
خبزهم ونبذهم».



pilgrimage to the isle where I was born, even like unto a ghost of one slain come to kneel before those who have slain him”.

And another mariner spoke and said: “Behold, the multitudes on the sea-wall. In their silence they have foretold even the day and the hour of your coming, and they have gathered from their fields and vineyards in their loving need, to await you”.

And Almustafa looked afar upon the multitudes, and his heart was mindful of their yearning, and he was silent.

Then a cry came from the people, and it was a cry of remembrance and of entreaty.

And he looked upon his mariners and said: “And what have I brought them? A hunter was I, in a distant land. With aim and might I have spent the golden arrows they gave me, but I have brought down no game. I followed not the arrows. Mayhap they are spreading now in the sun with the pinions of wounded eagles that would not fall to earth. And mayhap the arrow-heads have fallen into the hands of those who had need of them for bread and wine.

لست أدري إلامَ انتهت في مسراها؟ أمّا الذي أدريه
فهو أنها قد حَطَّت قوسَهَا في السماء .

ومع ذلك فلا يزال الحب يُظلُّني بجناحيه ، وأنتم
أيها الملاحون ، لا تنفكوا تُقلعون برؤاي . . . على أنه
لن ينعقد لساني . بل سأظلُّ أفصحُ عنها حتى حين تمتدُّ
يدُ الفصول إلى حلقي ، ولسوف أظلُّ أترنمُ بكلماتي
حتى و اللهب يحرقُ شفتي .

واضطربت قلوبهم لهذا الذي قال ، وصاح به أحدهم :
«فلتزوِّدنا أيها المعلم بكلِّ ما أوتيت من علم ، ولعلَّ
دمك الذي يجري في عروقنا ، وأنفاسنا التي هي من
عبيرك ، تُسعفنا على أن نفهمَ عنك» .

فأجابهم وخَفَقَ الريحُ يشيعُ في صوته : " وهل جئتم
بي إلى هذه الجزيرة التي ولدتُ فيها لتجعلوا مني
مُرشداً؟ " لا . لم تقيّدني الحكمةُ بعدُ بأغلالها ، وما
زلتُ يانعا غضَّ الإهاب ، لم أبلغ بعد أن أتحدّث عن
شيء ما غير النفس ، والنفس دائماً أغوارُ تتصل
بأغوار .



“I know not where they have spent their flight, but this I know: they have made their curve in the sky.

“Even so, love’s hand is still upon me, and you, my mariners, still sail my vision, and I shall not be dumb. I shall cry out when the hand of the seasons is upon my throat, and I shall sing my words when my lips are burned with flames.”

And they were troubled in their hearts because he spoke these things. And one said: “Master, teach us all, and mayhap because your blood flows in our veins, and our breath is of your fragrance, we shall understand.”

Then he answered them and the wind was in his voice, and he said: “Brought you me to the isle of my birth to be a teacher? Not yet have I been caged by wisdom. Too young am I and too verdant to speak of aught but self, which is for ever the deep calling upon the deep.

خَلَّوْا بَيْنَ مَنْ يَبْغِي الْحِكْمَةَ يَلْتَمِسُهَا فِي الشَّقَائِقِ
الْصَفْرَاءِ، أَوْ فِي قَبْضَةِ مَنْ صَلْصَالَ أَحْمَرَ. أَمَّا أَنَا
فَسَوْفَ أَظِلُّ الشَّادِي، أَشَدُّ لِلْأَرْضِ، وَأَشَدُّ
بِأَحْلَامِكُمُ الْخَالِيَةِ الَّتِي تُطَوِّفُ يَوْمَهَا بَيْنَ الْغَفْوَةِ
وَالْغَفْوَةِ. عَلَى أَنِّي سَوْفَ لَا أَنْفَكُ أَنْ تَطَّلِعُ إِلَى الْبَحْرِ».



“Let him who would have wisdom seek it
in the buttercup or in a pinch of red clay. I am
still the singer. Still I shall sing the earth, and
I shall sing your lost dreaming that walks the
day between sleep and sleep. But I shall gaze
upon the sea.”



وعندئذ دخلت السفينةُ المرفأ ، وأدركت سورَ البحر . وهكذا أب المصطفى إلى الجزيرة التي أنست به وليدًا ليقف من جديد بين أهله وعشيرته ، وانبعثت من قلوب القوم صيحاتٌ مُدَوِّيةٌ ، خفقت عنه الشعور بالوحدة الملازم للعائد إلى دياره بعد غيبة .

وانحبت الأصوات ترُقُب صوته . لكنه لم يقل شيئاً ، فقد غشيتهُ الذكريات بأشجانها ، فإذا هو يناجي نفسه : «أوقد قلت لهم إنني سأشدو؟ كلا ، فليس في وسع شفتي إلا أن تنفرجا لينطلق من بينهما صوت الحياة ذاهباً مع الريح يلتمس الفرحة والعون؟» .

عند ذلك هتفتُ به «كريمة» التي شاركته صباه لعباً في حديقة أمه : «لقد حجبتَ عنا وجهك اثني عشر عاماً ، ولقد خلّفتنا هذه السنون الاثنتا عشرة تُحس الجوع والظماً إلى صوتك» .

ونظر إليها المصطفى في حنان بالغ ، فقد كانت هي التي أغمضت عينيَّ أمّه حين طواها الموت بين أجنحته الشهباء .

ثم أجابها قائلاً : «اثنا عشر عاماً . . . أو قد قلت



And now the ship entered the harbour and reached the sea-wall, and he came thus to the isle of his birth and stood once more amongst his own people. And a great cry arose from their hearts so that the loneliness of his home-coming was shaken within him.

And they were silent awaiting his word, but he answered them not, for the sadness of memory was upon him, and he said in his heart: "Have I said that I shall sing? Nay, I can but open my lips that the voice of life may come forth and go out to the wind for joy and support."

Then Karima, she who had played with him, a child, in the Garden of his mother, spoke and said: "Twelve years have you hidden your face from us, and for twelve years have we hungered and thirsted for your voice."

And he looked upon her with exceeding tenderness, for it was she who had closed the eyes of his mother when the white wings of death had gathered her.

And he answered and said: "Twelve years?"

اثني عشر عاما يا كريمة؟ إنني لا أقيسُ شوقي بدورة
النجوم في أفلاكها، ولا هكذا أسبرُ غوره، فإن الحبَّ
إذا ما كان حنيناً إلى الوطن لن يحيط به الزمن، ولن
تبلغُ غوره الأيام.

كم من لحظات تحملُ في طياتها دهوراً من الفراق
متباعدة.

على أن الفراق شيء لا وجود له، وما هو
للأعراض من عوارض الذهن المكدود... وما
يدرنا.. لعلنا لم نفترق».

ونظر المصطفى إلى القوم جميعاً: شبانهم وشبيهم،
أقويائهم وضعفائهم، وإلى هؤلاء الذين احمرت
وجناتهم من لفح الشمس ومسّ الريح، وإلى
أولئك الذين علا مُحياهم شحوب واصفرار. وقد
أشرقت وجوه هؤلاء وأولئك بوهج الشوق وشُعاع
التساؤل.

وإذا أحدهم يقول: «أيها المعلم، لقد عصفت الحياة
عصفاً بآمالنا ورغباتنا، فتبلىل الخاطر، وما نعرفُ
لذلك سبباً. وإنني لأضرع إليك أن تُخفّف عنا،
فتكشف لنا عن سرّ أحزاننا».

وخنق قلبه رحمة بهم، وقال لهم: «إن الحياة أسبقُ



Said you twelve years, Karima? I measured not my longing with the starry rod, nor did I sound the depth thereof. For love when love is homesick exhausts time's measurements and time's soundings.

“There are moments that hold aeons of separation. Yet parting is naught but an exhaustion of the mind. Perhaps we have not parted.”

And Almustafa looked upon the people, and he saw them all, the youth and the aged, the stalwart and the puny, those who were ruddy with the touch of wind and sun, and those also who were of pallid countenance; and upon their face a light of longing and of questioning.

And one spoke and said: “Master, life has dealt bitterly with our hopes and our desires. Our hearts are troubled, and we do not understand. I pray you, comfort us, and open to us the meanings of our sorrows.”

And his heart was moved with compassion,



في الوجود من كل شيء حيّ، مثلها مثل الجمال الذي كان يخلق في سماء الوجود قبل أن يكون جميلٌ على وجه الأرض، ومثل الحق، كان حقاً قبل أن يجري على لسان.

نسكنُ وغناء الحياة لا ينقطع، ونغفو وأحلامها لاتزال موصولة. وحتى حين نُمسي مقهورين مُتظامين تظلُّ الحياةُ متربّعة على عرشها عزيزة. وحين نبكي تظلُّ الحياةُ باسمّة غير عابسة، وحين نرُسف في الأغلال تظلُّ الحياةُ حرّة طليقة.

وما أكثر ما ننعى على الحياة وندعوها بلاذع الأسماء ولكننا لا نفعل إلا حين نُحسّ في نفوسنا لدعاً وإظلاماً. ونحن نرمي الحياة بأنها خاوية لا غناء فيها، لكننا لا نفعل إلا حين تهيم النفس في آفاق موحشة، ويترنح القلبُ مثقلاً بشواغل النفس.

والحياةُ بعيدٌ غورها، شاهقٌ سموها، ممتدة آفاقها، وهي منك قريب، وإن كان خيالك مهما امتد لا يرقى إلا إلى قدميها، وأنفاسُ أنفاسك لا تبلغُ إلا قلبها، وطيفُ طيفك لا يجاوز إلا وجهها، وفي صدرها يستحيل صدى أخفت صيحاتك ربيعا وخريفًا.



and he said: "Life is older than all things living; even as beauty was winged ere the beautiful was born on earth, and even as truth was truth ere it was uttered.

"Life sings in our silences, and dreams in our slumber. Even when we are beaten and low, Life is enthroned and high. And when we weep, Life smiles upon the day, and is free even when we drag our chains.

"Oftentimes we call Life bitter names, but only when we ourselves are bitter and dark. And we deem her empty and unprofitable, but only when the soul goes wandering in desolate places, and the heart is drunken with overmindfulness of self.

"Life is deep and high and distant; and though only your vast vision can reach even her feet, yet she is near; and though only the breath reaches her heart, the shadow of your shadow crosses her face, and the echo of your faintest cry becomes a spring and an autumn in her breast.

والحياة محجّبةٌ مصونة، كما أن ذاتك الكبرى
محجّبة مصونة، ولكن حين تنطق الحياة تردّد الرياح
جميعاً كلماتها، وإذا عادت إلى الحديث استحالت
البسّمات على الشفاه والدموع في العيون هي الأخرى
إلى كلمات. وحين تغني الحياة يسمعها الأصم ويؤخذ
بسحر غنائها. وحين تُقبلُ مختالَةً يراها الضّرير فيفتن
بها ويخطو في إثرها أسيرَ العجب والدهشة».

ثم أمسك المصطفى عن الكلام، وعمّ القومَ
سكونٌ شامل، وسرّت في هذا السكون أغنيةٌ لم
تتلقّفها الأذان، طابت بها نفوسهم بعد وحشة،
وصحّت بعد توجّع.



“And Life is veiled and hidden, even as your greater self is hidden and veiled. Yet when Life speaks, all the winds become words; and when she speaks again, the smiles upon your lips and the tears in your eyes turn also into words. When she sings, the deaf hear and are held; and when she comes walking, the sightless behold her and are amazed and follow her in wonder and astonishment.”

And he ceased from speaking, and a vast silence enfolded the people, and in the silence there was an unheard song, and they were comforted of their loneliness and their aching.

وتركهم المصطفى وخلفهم لا يلوي على شيء،
وسلك سبيله إلى حديقته، حديقة أمه وأبيه، حيث
يرقدان ثاويين إلى جوار أسلافهما.

وكان بين الناس من رغب في اللحاق به، وقد رأوه
يحمل منية العائد إلى دياره، ورأوه وحيداً، إذ لم يكن
قد بقي له من أهله وأقاربه من يؤهل به ويرحب، على
نحو ما كان أفراد عشيرته يفعلون.

غير أن ربان السفينة أشار إليهم وهو يقول: «لسوف
تشفقون عليه إن لم تخلوا سبيله، فإن الوحدة زاده،
وفي كأسه يرقد نبذ الذكريات، وهو يحب أن يكون له
خالصاً من دون الناس».

وهنا توقّف الملاحون لا يخطون، فلقد أدركوا أن
القول ما قال ربان السفينة.

وتلبث هؤلاء الذين عكوا أسوار البحر لا يمضون،
يكبحون في أنفسهم رغبة جامحة في اللحاق به.

And he left them straightway and followed the path which led to his Garden, which was the Garden of his mother and his father, wherein they lay asleep, they and their forefathers.

And there were those who would have followed after him, seeing that it was a home-coming, and he was alone, for there was not one left of all his kin to spread the feast of welcome, after the manner of his people.

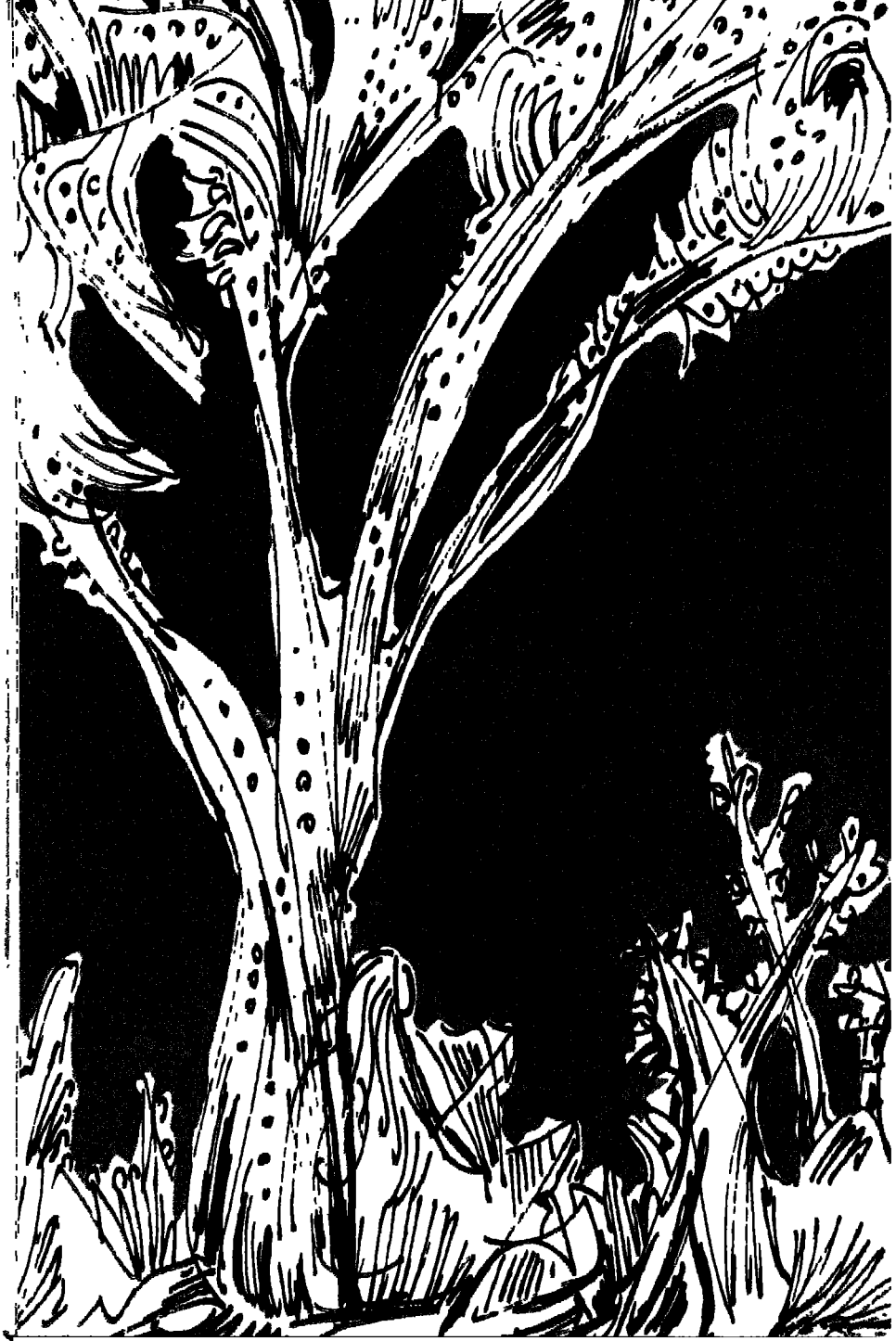
But the captain of his ship counselled them saying; "Suffer him to go upon his way. For his bread is the bread of aloneness, and in his cup is the wine of remembrance, which he would drink alone."

And his mariners held their steps, for they knew it was even as the captain of the ship had told them.

And all those who gathered upon the sea-wall restrained the feet of their desire.

Only Karima went after him, a little way, yearning over his aloneness and his memories. And she spoke not, but turned and went unto her own house, and in the garden under the almond-tree she wept, yet knew not wherefore.

«كريمة» وحدها هي
التي مضت في إثره،
تتبعه عن كَثْب، تَصْبُو
إلى وحدته، وتَتَوَقُّ إلى
ذكرياته. لكنها لم
تتكلم. ثم ما لبثت أن
عادت أدراجها تقصدُ
بيتها. وفي الحديقة،
وفي ظلّ شجرة اللّوز،
أخذت تبكي، دون أن
تدري لبكائها سببًا.



وجاء المصطفى إلى حديقة أمه وأبيه فدخلها،
وأغلق بابها من دون الناس، حتى لا يدخلها عليه
أحد.

في هذا البيت، وفي تلك الحديقة، مكث المصطفى
وحده أربعين يوماً وأربعين ليلة، لم يسع إليه إنسان،
أو يلمّ باب الحديقة أحد، لأنه كان مغلقاً، وكان القوم
جميعاً يعلمون أنه يحبّ أن يخلو إلى نفسه.

وما إن انقضت الأيام الأربعون ومعها لياليها حتى
فتح المصطفى باب الحديقة كي يتوافد الناس إليه.

وهناك سعى إليه رجال تسعة، ليكونوا إلى جواره
في الحديقة: ثلاثة من ملاحى سفينته، وثلاثة من سدنة
الهيكل، وثلاثة ممن شاركوه لهوه أيام صباه. وكان
هؤلاء جميعاً هم مريدوه.

وذات صباح جلس مريدوه من حوله، وإن عينيه
لترتسم فيهما الآماد وتشعان بالذكريات.

And Almustafa came and found the Garden of his mother and his father, and he entered in, and closed the gate that no man might come after him.

And for forty days and forty nights he dwelt alone in that house and that Garden, and none came, not even unto the gate, for it was closed, and all the people knew that he would be alone.

And when the forty days and nights were ended, Almustafa opened the gate that they might come in.

And there came nine men to be with him in the Garden; three mariners from his own ship; three who had served in the Temple; and three who had been his comrades in play when they were but children together. And these were his disciples.

And on a morning his disciples sat around him, and there were distances and remembrances in his eyes.

والتفت إليه مُريد من مرِيديه - اسمه «حافظ» - يقول له «هل لك في أن تحدّثنا أيها المعلم عن مدينة «أورفالس»، ثم عن تلك الأرض التي تخلّفت فيها اثني عشر عاماً؟» .

وظل المصطفى صامتاً يرمي ببصره إلى الرُّبى والتلال وإلى الفضاء الرَّحيب، وقد انطوى في صمته على صراع عنيف .

ثم التفت إليهم يقول: «يا صحابي، ويارفاق الطريق. ما أولاكم أن تَرثُوا لأمة زاخرة النفوس بالاعتقادات خاويتها من الإيمان .

وما أولاكم أن تَرثُوا لأمة تلبسُ أُرديّة لا تُنْسجُها، وتأكل خبزاً لا تحصده، وتشرب نبيذاً لا يسيل من معاصرها .

وما أولاكم أن تَرثُوا لأمة تهتفُ للباغي هُتافها للبلط، ويُبهرها الغازي فتعده الوهاب الجواد .

وما أولاكم أن تَرثُوا لأمة تستنكف اصطخاب العاطفة في أحلامها، وتستسلم لها في يقظتها .

وما أولاكم أن تَرثُوا لأمة لا ترفع صوتها إلا حين تشيّع ميّتا، ولا تتفاخرُ إلا بأطلالها ولا تثورُ إلا عندما ترى رقابها بين السيّف والنّطع .

And that disciple who was called Hafiz said unto him: "Master, tell us of the city of Orphalsee, and of that land wherein you tarried those twelve years."

And Almustafa was silent, and he looked away toward the hills and toward the vast ether, and there was a battle in his silenc.

Then he said: "My friends and my road-fellows, pity the nation that is full of beliefs and empty of religion.

"Pity the nation that wears a cloth it does not weave, eats a bread it does not harvest, and drinks a wine that flows not from its own winepress.

"Pity the nation that acclaims the bully as hero, and that deems the glittering conqueror bountiful.

"Pity the nation that despises a passion in its dream, yet submits in its awakening.

"Pity the nation that raises not its voice save when it walks in a funeral, boasts not except among its ruins, and will rebel not save when its neck is laid between the sword and the block.

وما أولاكم أن ترثوا لأمة وليها ثعلب ماكر،
وحكيمها مُشعوذ، وفنها فن بُني على الترقيع
والمحاكاة.

وما أولاكم أن ترثوا لأمة تستقبلُ حاكمها الجديد
بالطَّبل والزَّمر، وتُشيِّعه بالنكير والصفير، لتعودَ
فتستقبلُ الخلفَ بما استقبلت به السَّلف.

وما أولاكم أن ترثوا لأمة قد عقدت السنون ألسنةَ
حكماؤها، وخلفت ذوي البأس من رجالها في
مهادهم.

ثم ما أولاكم أن ترثوا لأمة تفرقت أحزاباً، وظنَّ
كلُّ حزب أنه أمة وحده.



“Pity the nation whose statesman is a fox,
whose philosopher is a juggler, and whose art
is the art of patching and mimicking.

“Pity the nation that welcomes its new
ruler with trumpetings, and farewells him
with hootings, only to welcome another with
trumpetings again.

“Pity the nation whose sages are dumb
with years and whose strong men are yet in
the cradle.

“Pity the nation divided into fragments,
each fragment deeming itself a nation.”



وقال واحد منهم: «لقد آن أن تحدّثنا عمّا يجيشُ في صدرك ولا ينطقُ به لسانك».

ونظر المصطفى إلى محدّثه هذا، تخالط صوته شقشقةً نجم صادح، وقال: «في أحلام يقظتك، حين تَجْنحُ إلى السكون، وتصيحُ إلى ما ينبعث من أعماق نفسك، تساقطُ عليك أفكارك خفاقةً، كما تساقطُ نُدف الثلج من السماء، تُضفي على كل خلجة من خلجات نفسك ثوباً من السكينة ناصع البياض.

وهل أحلام اليقظة إلا كُندف الغمام، تُنوع وتُزهر فوق تلك الشجرة الباسقة، التي أصلها في قلوبكم؟ وهل أفكاركم إلا أوراق الزهر تنشرها رياح قلوبكم فوق التلال ووهادها؟».

وإن مثلكم وأنتم تتطلعون إلى الأمن والسكينة، حتى يستقرّ ما لا صورة له فيكم على صورة، مثلُ الغمامة تتجمّع وتنساقُ إلى أن تُحيلَ يدُ الله المباركة أمانها الكايبية بللورات شمس صغيرة وأقمار ونجوم.

وهنالك انبرى «سركيس» - وكان الشك يُخالط قلبه - فقال له: «لكن الربيع سوف يُقبل، ولسوف تذوبُ ثلوج أحلامنا وأفكارنا جميعاً ولا يبقى منها شيء؟».

And one said: Speak to us of that which is moving in your own heart even now.”

And he looked upon that one, and there was in his voice a sound like a star singing, and he said: “In your walking dream, when you are hushed and listening to your deeper self, your thoughts, like snow-flakes, fall and flutter and garment all the sounds of your spaces with white silence.

“And what are waking dreams but clouds that bud and blossom on the sky-tree of your heart? And what are your thoughts but the petals which the winds of your heart scatter upon the hills and its fields?

“And even as you wait for peace until the formless within you takes form, so shall the cloud gather and drift until the Blessed Fingers shape its grey desire to little crystal suns and moons and stars.

Then Sarkis, he who was the half-doubter, spoke and said: “But spring shall come, and all the snows of our dreams and our thoughts shall melt and be no more.”

وأجاب المصطفى قائلاً «لتذوين الثلوج حين يُقبلُ
الريبعُ ينشدُ محبوبته بين الحَرَجات الهاجعة والكروم
الغافية . ولتجرين تلك الثلوج جداولَ تسعى إلى النهر
في الوادي ، كي تكون الساقى يحملُ الكأسَ إلى
أشجار الآس والغار .

ولتذوين ثلوجُ قلوبكم حين يُقبلُ الربيع ، ولتسابقن
أسراركم جداول تطلب نهر الحياة في الوادي ،
وليَطوين النهر أسراركم ، وليَحملنّها إلى البحر الأعظم .

ولسوف يذوب كل شيء حين يُقبلُ الربيع ويغدو
نشيدا وترتيلا . كذلك النجوم ونُدف الثلج الغفيرة التي
تساقط على الحقول الفسيحة في هُوادة وأناة ، سوف
تذوبُ هي الأخرى وتنساب جداولَ مصفّقة
هازجة . وحين يتجلّى المتعال بوجهه من الأفق
الرحيب ، فهل من جمّد تناسقت أجزاءه وتضامّت
وحداته لا يذوب صادحا باللحن النديّ؟ ومن منكم لا
يوّد أن يكون الساقى ، يحملُ الكأس إلى أشجار الآس
والغار؟

بالأس القريب كنتم تضطربون فوق البحر المائج ،
لا شاطئ تركزون إليه ، ولا نفس تسكنون إليها . وإذا

And he answered saying: "When Spring comes to seek His beloved among the slumbering groves and vineyards, the snows shall indeed melt and shall run in streams to seek the river in the valley, to be the cupbearer to the myrtle-trees and laurel.

"So shall the snow of your heart melt when your Spring is come, and thus shall your secret run in streams to seek the river of life in the valley. And the river shall enfold your secret and carry it to the great sea.

"All things shall melt and turn into songs when Spring comes. Even the stars, the vast snow-flakes that fall slowly upon the larger fields, shall melt into singing streams. When the sun of His face shall arise above the wider horizon, then what frozen symmetry would not turn into liquid melody? And who among you would not be the cupbearer to the myrtle and the laurel?

"It was but yesterday that you were moving with the moving sea, and you were

الرياح - أنفاس الحياة - قد اتخذت منكم حجاباً من نور أضعفته على وجهها، ثم مدت يدها فجمعت شملكم وسوت صوركم، ومضيت برؤوس شامخة تلمسون الذرى والقمم العوالي. لكن البحر كان في إثركم لا يفتأ يلاحقكم، وأنشودته لا تنفك تلازمكم. وإن كنتم قد نسيتم بنوتكم له، فسوف يظل إلى الأبد يؤكد أبوته لكم، وسوف يظل يدعوكم له أبداً، لا يكف ولا يريم . . .

وستذكرون دائماً - في جولا تكم بين شعاب الجبال وفي مسيركم فوق رمال الصحراء - جوفه العميق الرطيب. وإذا كان يعزّ عليكم أحياناً أن تعرفوا إلاّم تهفو قلوبكم، فهي حقاً تهفو إلى سكينته الشاملة، تهمس بالإيقاع الجميل.

وهل غير هذا يكون؟ ففي الحرجة، وفي الخميطة، حين ترقص حبات المطر على صفحات أوراق الأشجار فوق الرّبي، وحين يساقط الثلج رحمة ووفاء، وحين ترعون قطعانكم في الوادي تسوقونها إلى النهر، وحين تجتمع الجداول في حقولكم وكان ماءها اللّجين قد

shoreless and without a self. Then the wind, the breath of Life, wove you, a veil of light on her face; then her hand gathered you and gave you form; and with a head held high you sought the heights. But the sea followed after you, and her song is still with you. And though you have forgotten your parentage, she will for ever assert her motherhood, and for ever will she call you unto her.

“In your wanderings among the mountains and the desert you will always remember the depth of her cool heart. And though oftentimes you will not know for what you long, it is indeed for her vast and rhythmic peace.

“And how else can it be? In grove and in bower when the rain dances in leaves upon the hill, when snow falls, a blessing and a covenant; in the valley when you lead your flocks to the river; in your fields where brooks, like silver streams, join together the

green garment; in
 your gardens when
 the early dews
 mirror the heavens;
 in your meadows
 when the mist of
 evening half veils
 your way; in all
 these the sea is with
 you, a witness to
 your heritage, and a
 claim upon your
 love.

“It is the
 snow-flake in you
 running down to the
 sea.”

تسرّبل بثياب سندسية،
 وقطرات الطلُّ الباكر
 على الرّياض تعكسُ
 صَفْحَةَ السَّماءِ، وحين
 يغشَى ضباب المساء
 سُبُلَكُمْ فيحجبُها أو
 يكاد، يتمثل لكم البحرُ
 في هذا كله شاهداً على
 أبوتّه لكم، طامعاً في
 حبّكم له .

إنه نُدفُ الثلجُ تجري
 منكم منحدرَةً إلى
 البحر .



وفيما هم يسيرون في الحديقة ذات صباح، بدت لهم دون الباب امرأة لم تكن غير «كريمة» التي أحبها المصطفى في صباه حبَّ الأخ لأخته. وقد ظلَّت واقفةً بالباب لا تطلبُ شيئاً، ولا تَقْرعه بيدها، بيدَ أنها ما برحت تتطلَّع إلى الحديقة في حنين وأسى.

ولمَّح المصطفى لَهفتها في خلجات جُفونها، فخفَّ نحو السور في خطوات سريعة وفتح الباب، فدخلت يُرحِّبُ الكلُّ بها.

وتكلَّمت فقالت: «لماذا نأيتَ عنا جميعاً حتى حرَّمتنا العيشَ في نور محيِّاك؟. انظر فهذه سنينُ طوال قضيناها تجيشُ قلوبنا بحبِّك، وتهفو نفوسنا انتظاراً لأوبتك سالماً. والآن يهتفُ القومُ باسمك، ويودُّون السَّماعَ إليك، وأنا رسولُهم جئتُ أضرعُ إليك أن تطلَّعَ عليهم، وتُلقي إليهم من حكمتك، وتَجْبِرَ قلوبنا الكسيرة، وتقدنا من حماقاتنا».

And on a morning as they walked in the Garden, there appeared before the gate a woman, and it was Karima, she whom Almustafa had loved even as a sister in his boyhood. And she stood without, asking, nothing, nor knocking with her hand upon the gate, but only gazing with longing and sadness into the Garden.

And Almustafa saw the desire upon her eyelids, and with swift steps he came to the wall and the gate and opened unto her, and she came in and was made welcome.

And she spoke and said: "Wherefore have you withdrawn yourself from us altogether, that we may not live in the light of your countenance? For behold, these many years have we loved you and waited with longing for your safe return. And now the people cry for you and would have speech with you; and I am their messenger come to beseech you that you will show yourself to the people, and speak to them out of your wisdom, and comfort the broken of heart and instruct our foolishness."

And looking upon her, he said: "Call me not wise unless you call all men wise. A young fruit am I, still clinging to the branch, and it was only yesterday that I was but a blossom.

"And call none among you foolish, for in truth we are neither wise nor foolish. We are green leaves upon the tree of life, and life itself is beyond wisdom, and surely beyond foolishness.

"And have I indeed withdrawn myself from you? Know you not that

فَنظَرَ إِلَيْهَا الْمِصْطَفَى
وَقَالَ: «إِذَا دَعَوْتَنِي
حَكِيمًا فَادْعِي مَعِيَ كُلَّ
النَّاسِ حَكَمَاءَ. مَا أَنَا إِلَّا
ثَمَرَةٌ غَضَّةٌ، لَا تَزَالُ
بِالْغُصْنِ عَالِقَةً، وَلَمْ أَكُ
بِالْأَمْسِ إِلَّا زَهْرَةً نَوَّارَةً.

وَحَذَّرَ أَنْ تَصْفِي أَحَدًا
بِالْحَقِّ، فَفِي الْحَقِّ لِسْنَا
بِالْحَمَقَى وَلَا بِالْحَكَمَاءِ .
وَإِنَّمَا نَحْنُ أَوْرَاقٌ يَانِعَةٌ
عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ . وَالْحَيَاةُ
ذَاتَهَا تَسْمُو الْحِكْمَةَ ، وَهِيَ
لَا شَكَّ تَسْمُو الْحَمَاقَةَ .

«أَتْرَيْنَنِي قَدْ نَأَيْتُ
بِنَفْسِي عَنْكُمْ حَقًّا؟ أَلَا
تَعْلَمِينَ أَنَّهُ مَا مِنْ بَعْدِ
يَكُونُ إِلَّا إِذَا عَجَزَتْ



النفسُ عن أن تصل في الخيال بين طرفيه ، فإذا اتصلا
اغتندى في النفس لحنا موقعا ؟

إن البعد بينك وبين جار قريب لا يجمعك وإياه
الودّ ، لأعظم حقا من البعد بينك وبين حبيب تفصلك
عنه سبعة عوالم وسبعة بحار .

ففي الذكري تختفي الآماد والأبعاد ، وفي ظلّ
النسيان تكون الهوة التي لا يطويها صوتٌ
ولا يبلغها بصر .

« وبين سواحل المحيطات وذرى الجبال السامقة
يستوي طريقٌ خفيّ ، حتمٌ عليك أن تقطعه قبل أن
تُصبحي من أبناء الأرض . »

وبين معرفتك وإدراكك يستوي ممرٌ خفيّ ، حتمٌ
عليك أن تكشفه قبل أن تتحدى بالبشرية فتسكني إلى
نفسك .

« وبين يمينك التي تُعطي ، ويسراك التي تأخذ ،
بؤنٌ شاسع لا يحويه إلا إيمانك بأن يديك كلتيهما
للأخذ والعطاء معاً . وهيهات أن ينمحي هذا البون

there is no distance save that which the soul does not span in fancy? And when the soul shall span that distance, it becomes a rhythm in the soul.

“The space that lies between you and your near neighbour unbefriended is indeed greater than that which lies between you and your beloved who dwells beyond seven lands and seven seas.

“For in remembrance there are no distances; and only in oblivion is there a gulf that neither your voice nor your eye can abridge.

“Between the shores of the oceans and the the summit of the highest mountain there is a secret road which you must needs travel ere you become one with the sons of earth.

“And between your knowledge and your understanding there is a secret path which you must needs discover ere you become one with man, and therefore one with your-self.

“Between your right hand that gives and your left hand that receives there is a great space. Only by deeming them both giving and

إلا إذا أيقنت أنه ليس بوسعك أن تُعطي، ولا بوسعك أن تأخذي». .

«وفي الحق إن أبعدَ البُعد، هو الذي يفصل بين رؤي منامك ووعي يقظتك، وبين ذلك الذي هو فعلٌ فحسب، وذلك الذي هو رغبة فحسب» .

«ولا يزال هناك طريق آخر، حتمٌ عليك أن تسلكيه قبل أن تتحدي بالحياة. ولستُ بمحدثك الآن عن هذا الطريق، فإني أرى الإعياء باديا عليك بما عانيت حتى الآن من وعناء السفر» .

receiving can you bring them into spacelessness, for it is only in knowing that you have naught to give and naught to receive that you can overcome space.

“Verily the vastest distance is that which lies between your sleep-vision and your wakefulness; and between that which is but a deed and that which is a desire.

“And there is still another road which you must needs travel ere you become one with Life. But of that road I shall not speak now, seeing that you are weary already of travelling.”



وعندئذ مضى تصحبه
مرأة والتسعة الآخرون
حتى بلغ ساحة
سوق. ثم خاطب
نقوم. صحابه وجيرانه،
فعمرت الفرحه قلوبهم،
وملأ البشر جفونهم.

ثم قال: «إنكم
تشرعرون في نومكم،
وتحبون ملء حياتكم في
حلامكم. ذلك أنكم
تقضون سواد نهاركم
شاكرين ما أعطيتكم في
سكون الليل الساجي».

وكثيرا ما يتحدثون
وتقولون: إن الليل أوان
الراحة، بينما هو في الحق
وقت السعي وانكشاف
الحقائق!

Then he went forth with the woman, he and the nine, even unto the market-place, and he spoke to the people, his friends and his neighbours, and there was joy in their hearts and upon their eyelids.

And he said: "You grow in sleep, and live your fuller life in your dreaming. For all your days spent in thanksgiving for that which you have received in the stillness of the night.

"Oftentimes you think and speak of night as the season of rest, yet in truth night is the season of seeking and finding.



«ولئن كان النهار يمنحكم القدرة على أن تنهلوا من المعرفة، ويدرب أصابعكم على أن تحذق فن الأخذ، فإن الليل هو الذي يرشدكم إلى كنوز الحياة».

«ولئن كانت الشمس تُعلِّمُ كلَّ ما ينمو الشُّوق إلى الضياء، فإن الليل هو الذي يسمو به إلى مقام النجوم».

«ولئنما سكونُ الليل السَّاجي، هو الذي ينسجُ نقابَ العُرس ويُضفيه على الأشجار في الغابة والأزهار في البستان، ثم يمُدُّ سماطَ المأدبة في كرم وسخاء، ويعدُّ مخدعَ العُرس. وفي هذا السُّكون المقدَّس، يستوي الغدُّ جنيناً في رحم الزمن».

وهكذا شأنُ الليل معكم، فإنكم إذ تسعون تجدون الرزقَ وتحقيقَ الأمل. وإذا كانت يقظتكم في الفجر تمحو ما وعته ذاكرتكم، فإن مائدة أحلامكم تظلُّ دائماً مبسوطة، كما يظلُّ مخدعُ العُرس قائماً ينتظر.

“The day gives unto you the power of knowledge and teaches your fingers to become versed in the art of receiving; but it is night that leads you to the treasure-house of Life.

“The sun teaches to all things that grow their longing for the light. But it is night that raises them to the stars.

“It is indeed the stillness of the night that weaves a wedding-veil over the trees in the forest, and the flowers in the garden, and then spreads the lavish feast and makes ready the nuptial chamber; and in that holy silence to-morrow is conceived in the womb of Time.

“Thus it is with you, and thus, in seeking, you find meat and fulfilment. And though at dawn your awakening erases the memory, the board of dreams is for ever spread, and the nuptial chamber waiting.”

وسكت المصطفى برهة . وكذلك فعل قومه انتظاراً
لما يقول . ثم تكلم مرة أخرى قائلاً : "لئن كنتم تبدوون
في أجساد ، فأنتم مع ذلك أرواح . وكما أن الزيت
يتقدُّ في الظلام ، كذلك أنتم كالمصباح ولو ضمته
زجاجة .

« فإذا كنتم أجسادا فحسب ، فإن وقوفي أمامكم
وحديثي إليكم ليس إلا هباء كما يهتف ميتٌ بميت .
ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فكلُّ ما لا يجوزُ عليه
الموت فيكم حرٌّ طليقٌ آناء الليل وأطراف النهار ،
لا يحدهُ مكان ولا يغلهُ قيد ، وتلك مشيئةُ العليِّ
القدير . ولأنتم أنفاسه تنطلق كالرياح لا يمكن اللِّحاق
بها ولا أسرها . وأنا أيضاً نفسٌ من أنفاسه . »

ثم ترك جمعهم وأسرع يرجع إلى الحديقة .

وتكلم «سركيس» ، ذلك الذي كان يطوف به طائفٌ
من الشك فقال : «وما قولك في القُبْح أيها المعلم ،
فإنك لم تعرض له قط في حديثك؟ . . . »

فأجابه المصطفى ، وفي كلماته لدعُ الشياطين : «مَنْ ذا

And he was silent for a space, and they also, awaiting his word. Then he spoke again, saying: "You are spirits though you move in bodies; and, like oil that burns in the dark, you are flames though held in lamps.

"If you were naught save bodies, then my standing before you and speaking unto you would be but emptiness, even as the dead calling unto the dead. But this is not so. All that is deathless in you is free unto the day and the night and cannot be housed nor fettered, for this is the will of the most High. You are His breath even as the wind that shall be neither caught nor caged. And I also am the breath of His breath."

And he went from their midst walking swiftly and entered again into the Garden.

And Sarkis, he who was the half-doubter, spoke and said: "And what of ugliness, Master? You speak never of ugliness."

And Almustafa answered him, and there

الذي يستطيع أن يَصْمَكَ بالبُخل يا صاحبي ، إذا مرَّ
أحدٌ بدارك ولم يطرقَ عليك بابك؟

«ومنَ ذا الذي يستطيع أن يرميك بالصَّمم والإدبار
عن الناس ، وقد تحدّث إليك بلغة غريبة لا تفهمها؟» .

«أوكيس هذا الذي لم تَسع يوماً إليه ، ولم ترغب
يوماً في تعمق أسرارهِ ، هو الذي تُسميه بالقبح؟» .

«فإذا كان القبحُ شيئاً ، فليس هو في الحق إلاّ
الغشاوةُ تُغشي عينك ، والصمّلاخُ يسدّ أذنيك» .

«وحذار أن ترمي شيئاً بالقبح يا صاحبي ، فما القُبح
حقاً إلاّ الخشيةُ تعترى النفسَ حين تحضُّرها
الذكريات» .

was a whip in his words, and he said: “My friend, what man shall call you inhospitable if he shall pass by your house, yet would not knock at your door?”

“And who shall deem you deaf and unmindful if he shall speak to you in a strange tongue of which you understand nothing?”

“Is it not that which you have never striven to reach, into whose heart you have never desired to enter, that you deem ugliness?”

“If ugliness is aught, indeed, it is but the scales upon our eyes, and the wax filling our ears.

“Call nothing ugly, my friend, save the fear of a soul in the presence of its own memories.”



وذات يوم بينما هم قعود تحت الظلال الممتدة لأشجار الحور البيضاء، تكلم واحد منهم وقال: «لشدّ ما أخشى الزمن أيّها المعلم، فهو يمرّ بنا ويطوي شبابنا. . . فماذا يمنحنا عوضاً عن ذلك؟».

فأجاب المصطفى: «اقبض الآن قبضةً من هذا الثرى الطيب. ألسنت تجد فيها بذرةً وربما دودة؟. لو أن راحتك من السّعة وقوّة الاحتمال بمكان، فلربّما تغدو فيها البذرة غابة، ولربّما تصبح الدودة كوكبة من الملائكة. ألا لا يغيبنّ عنك أن السنين التي تجعل من البذور غابات، وتُحيلُ الدودَ إلى ملائكة هي بنت هذه اللحظة. والسنون كلها هي هذه اللحظة . . . اللحظة ذاتها.

«وماذا تكون فصول السنين غير أفكار لك تتغير؟ ما الربيع إلا يقظة تُشرق في صدرك، وما الصيفُ غيرُ شاهد على ما فيك من خصب. ثم أليس الخريف هو القديم فيك يغني مُهدّداً ما لا يزال طفلاً في صميم كيانك؟. وهل الشتاءُ لعمرك إلا إغفاءٌ حُبلى بالأحلام، ترى فيها سائر الفصول الأخرى؟».

ثم انبرى «مانوس» - وكان حوارياً كثير السؤال والاستفسار - وتلفت حوله حين رأى نباتات ذات

And upon a day as they sat in long shadows of the white poplars, one spoke saying: “Master, I am afraid of time. It passes over us and robs us of our youth, and what does it give in return?”

And he answered and said: “Take up now a handfull of good earth. Do you find in it a seed, and perhaps a worm? If your hand were spacious and enduring enough, the seed might become a forest, and the worm a flock of angels. And forget not that the years which turn seeds to forests, and worms to angels, belong to this Now, all of the years, this very Now.

“And what are the seasons of the years save your own thoughts changing? Spring is an awakening in your breast, and summer but a recognition of your own fruitfulness. Is not autumn the ancient in you singing a lullaby to that which is still a child in your being? And what, I ask you, is winter save sleep big with the dreams of all the other seasons.”

And then Mannus, the inquisitive disciple, looked about him and he saw plants in flower

أزهار تنمو متسلقة شجرة الجُمَيْز، وقال: «انظر إلى الطفيليات أيها المعلم، فما قولك فيها؟ إنها اللصوص استرخت أجفانهم الكليّة، يسلبون الضياء من أبناء الشمس المثابرين، ويمتصّون عصارة الحياة التي تجري في أغصانهم وأوراقهم».

وأجابه المصطفى قائلاً: «كلُّنا طفيليّون يا صاحبي .
ولسنا - نحن الذين نَجْهَدُ لنجعلَ العُشْبَ ينبضُ بالحياة -
أرفع شأننا من أولئك الذين يغتدون من العُشْبِ بلا
وسيط، وهم بالعُشْبِ يجهلون».

«تُرى: أتقول الأم لُطفِلهَا: إني لأرُدُّكَ إلى الغابة
وهي أمك الكبرى، فقد أضنيت فؤادي وكلت بك
يدي؟».

«أم تُرى المغني يضيقُ بأغنيته فهو يقول: ارجعي
عَجَلَةً إلى كهف الأصداء الذي منه أتيت فإن صوتك
يُنْهَكُ أنفاسي؟...»

«أم تُرى الراعي يقول للحَمَل وهو صاحبه: لا
مرعى بين يديّ أسوفك إليه، فلتهلك إذن، ولتغدون
قرباناً على مذبح هذه الغاية؟...»

«لا يا صاحبي، فإن هذه المسائل كلّها عندك جوابها

cleaving unto the sycamore-tree. And he said: "Behold the parasites, Master. What say you of them? They are thieves with weary eyelids who steal the light from the steadfast children of the sun, and make fair of the sap that runneth into their branches and their leaves."

And he answered him saying: "My friend, we are all parasites. We who labour to turn the sod into pulsing life are not above those who receive life directly from the sod without knowing the sod.

"Shall a mother say to her child: 'I give you back to the forest, which is your greater mother, for you weary me, heart and hand'?"

"Or shall the singer rebuke his own song, saying: 'Return now to the cave of echoes from whence you came, for your voice consumes my breath'?"

"And shall the shepherd say to his yearling: 'I have no pasture whereunto I may lead you; therefore be cut off and become a sacrifice for this cause'?"

"Nay, my friend, all these things are



قبل أن تُشيرها، وهي كأحلامك تماما، تتحقق قبل أن تنام.

نحن نعيش بعضنا لبعض ظهيرا وفقاً لقانون أزلي لا يجور عليه زمان. فلننعم إذن متحابين مُترأحمين، يسعى الواحد منا إلى الآخر في وحدته، ويمضي في الطريق حين يفتقد المأوى الذي يأوي إليه.

«أيها الأصدقاء والإخوان، إن الطريق الرحيب هو رفيقكم».

«فهذه النباتات التي تعيش على غيرها من الأشجار تمتص حليب الأرض في سكون الليل الساجي، والأرض في حلمها الخلي ترضع من ثدي الشمس».

«والشمس مثلك ومثلي ومثل سائر الكائنات، تشاركنا جميعاً شرف الجلوس إلى مأدبة المولى . . . وبابه دائماً غير مُوصد، ومائدته أبداً مبسوطة».

«أيّ «مانوس» يا صاحبي، إن كل ما هو كائن يعيش على كل ما هو موجود، وكل ما هو موجود يعيش في إيمان بلا حدود على فيض العلي المتعال».

answered even before they are asked, and, like your dreams, are fulfilled ere you sleep.

“We live upon one another according to the law, ancient and timeless. Let us live thus in loving-kindness. We seek one another in our aloneness, and we walk the road when we have no hearth to sit beside.

“My friends and my brothers, the wider road is your fellow-man.

“These plants that live upon the tree draw the milk of the earth in the sweet stillness of night, and the earth in her tranquil dreaming sucks at the breast of the sun.

“And the sun, even as you and I and all there is, sits in equal honour at the banquet of the Prince whose door is always open and whose board is always spread.

“Mannus, my friend, all there is lives always upon all there is; and all there is lives in the faith, shoreless, upon the bounty of the Most High”.

وذات صباح وكان ما زال يَغشى السماء شحوب
الفجر، مضى الجميع سائرين في الحديقة، متطلعين
إلى المشرق، وقد لفهم السكون في حضرة الشمس
البازغة.

وأشار المصطفى بيده بعد قليل، وقال: «إن
صورة شمس الصباح المتمثلة في قطرة من الندى،
ليست أقل شأنًا من الشمس. كذلك صورة الحياة
المنعكسة على صفحة نفوسكم، ليست أقل شأنًا من
الحياة».

فقطرة الندى تعكس صورة الضياء، لأنها والضياء
شيء واحد. وأنتم تعكسون صورة الحياة لأنكم والحياة
شيء واحد.

«ولتهتفوا حين تغشاكم الظلمة: هذه الظلمة فجر لم
يولد بعد، ولن يلبث الليل المُدلكهم الذي يُطبق علي
أن يتمخض عن فجر يُشرق علي كما يُشرق علي
الآكام».

«إن قطرة الندى وهي تستوي كُرة في طوايا الزنبقة
لا تختلف عنك وأنت تلمُّ شتات نفسك في ذات الله.

«فإذا قالت قطرة الندى: «ألا لقد كنت أيضًا ذات
مرة قطرة ندى منذ ألف سنة». فلتجبه قائلاً: «ألا
تعلمين أن ضوء السنين كلها يتألق في محيطك؟».

And on an evening a great storm visited the place, and Almustafa and his disciples, the nine, went within and sat about the fire and were still and silent.

Then one of the disciples said: "I am alone, Master, and the hoofs of the hours beat heavily upon my breast."

And Almustafa rose up and stood in their midst, and he said in a voice like unto the sound of a great wind: "Alone! And what of it? You came alone, and alone shall you pass into the mist.

"Therefore drink your cup alone and in silence. The autumn days have given other lips other cups and filled them with wine bitter and sweet, even as they have filled your cup.

"Drink your cup alone though it taste of your own blood and tears, and praise life for the gift of thirst. For without thirst your heart is but the shore of a barren sea, songless and without a tide.

وذات مساء ألت بمقامهم عاصفةً هوجاء، فذكَفَ
المصطفى وحواريّوه التسعة إلى الداخل، وجلسوا إلى
النار وقد شملهم الصمّت والسكون .

وحيثذ قال أحد الحواريين: «إني وحيدٌ أيها
المعلّم وأحسّ بسنابك الزمن تدوسُ صدري في
عنف وشدة» .

فنهض المصطفى واقفاً وسطهم، وقال في صوت
كأنما يخاطب به ريحاً عاتية: «وحيداً وماذا يضيرك؟
لقد أتيتَ وحيداً، وستمضي وحيداً صوب
جُوف الضباب .

فلتُشرب إذن كأسك وحيداً في سكون . إن أيام
الخريف قد منحت شفاهاً أخرى غير شفّيتك كؤوساً
أخرى وأترعتّها بالخمّر، مُرّها وحلّوها، كما أترعت
كأسك سواء بسواء .

فلتُشرب كأسك وحيداً، وإن كان مذاقها من مذاق
دمك ودموعك، و اشكر الحياة على نعمة الظمّاء . فلو لا
الظمّاء لما كان قلبك إلا شاطئاً لبحر ناضب، لا يهدر ولا
يحرّكه مدّ .

And on an evening a great storm visited the place, and Almustafa and his disciples, the nine, went within and sat about the fire and were still and silent.

Then one of the disciples said: "I am alone, Master, and the hoofs of the hours beat heavily upon my breast."

And Almustafa rose up and stood in their midst, and he said in a voice like unto the sound of a great wind: "Alone! And what of it? You came alone, and alone shall you pass into the mist.

"Therefore drink your cup alone and in silence. The autumn days have given other lips other cups and filled them with wine bitter and sweet, even as they have filled your cup.

"Drink your cup alone though it taste of your own blood and tears, and praise life for the gift of thirst. For without thirst your heart is but the shore of a barren sea, songless and without a tide.

«لتشرب كأسك وحيداً، ولتشربها متهللاً مُستبشراً» .

«وارفعها عالياً فوق رأسك، ولتجرعها حتى الثمالة
في نخب من يشربون وحدهم، لا أنيس لهم ولا نديم .
«لقد سعت ذات مرة إلى صحبة الناس، وجلست
معهم إلى موائدهم، وشاركتهم الشراب حتى الثمالة،
غير أن خمرهم لم ترق إلى رأسي، ولا هي تدفقت في
صدري وإنما هبطت إلى قدمي، فجفّ معين حكمتي
وانقبض قلبي وبات موصداً . ولم تُشاركهم في
غياهب حيرتهم إلا قدماي .

وبعدها، أمسكتُ عن السعي إلى الصحاب،
وأمسكتُ عن مشاركتهم الخمر على مائدة الشراب .

«ولذلك أقول لك: ماضرك إذا داست سنابكُ
الزمن صدرك في عنف وشدّة؟ خيرٌ لك أن تشربَ
كأس أتراحك وحيداً، كما تشربُ كأسَ
أفراحك وحيداً» .

“Drink your cup alone, and drink it with cheers.

“Raise it high above your head and drink deep to those who drink alone.

“Once I sought the company of men and sat with them at their banquet-tables and drank deep with them; but their wine did not rise to my head, nor did it flow into my bosom. It only descended to my feet. My wisdom was left dry and my heart was locked and sealed. Only my feet were with them in their fog.

“And I sought the company of men no more, nor drank wine with them at their board.

“Therefore I say unto you, though the hoofs of the hours beat heavily upon your bosom, what of it? It is well for you to drink your cup of sorrow alone, and your cup of joy shall you drink alone also.”

وكان «فاردروس» الرومي يجول في الحديقة يوماً، فإذا قدمه تتعثرُ بحجر، فغضب وارتد إلى الحجر والتقطه، وقال في صوت خفيض قبل أن يقذف به: «إيه أيها الميت الذي يعترض طريقي!».

فقال المصطفي، المختار الحبيب: «لم تقول: إيه أيها الميت؟». أتقضي بالحديقة هذا الوقت الطويل دون أن تدرك أنه ما من ميت هنا؟ الأشياءُ جميعاً تعيشُ وتتألق في وضح النهار وفي جلال الليل. أنت والحجر سواء، لا فرق بينكما إلا في نبضات القلب. ستقول إن قلبك ينبضُ أسرع قليلاً من قلبه، أليس كذلك يا صاحبي؟ أجل، ولكن قلبك ليس في سكينه قلبه واطمئنانه.

«ولقد يكون إيقاعُ قلبه غير إيقاع قلبك، ولكنني أقولُ لك: إنك إذا سبرت أغوار نفسك، ووعيت رحاب الفضاء، لما سمعت غير لحن واحد يشترك في أدائه النجم والحجر في توافقٍ نغمي تام».

فإن لم تبلغ كلماتي إدراكك، فاصبر حتى يُشرق عليك فجر جديد. وإن كنت قد لعنت الحجر لأنك في

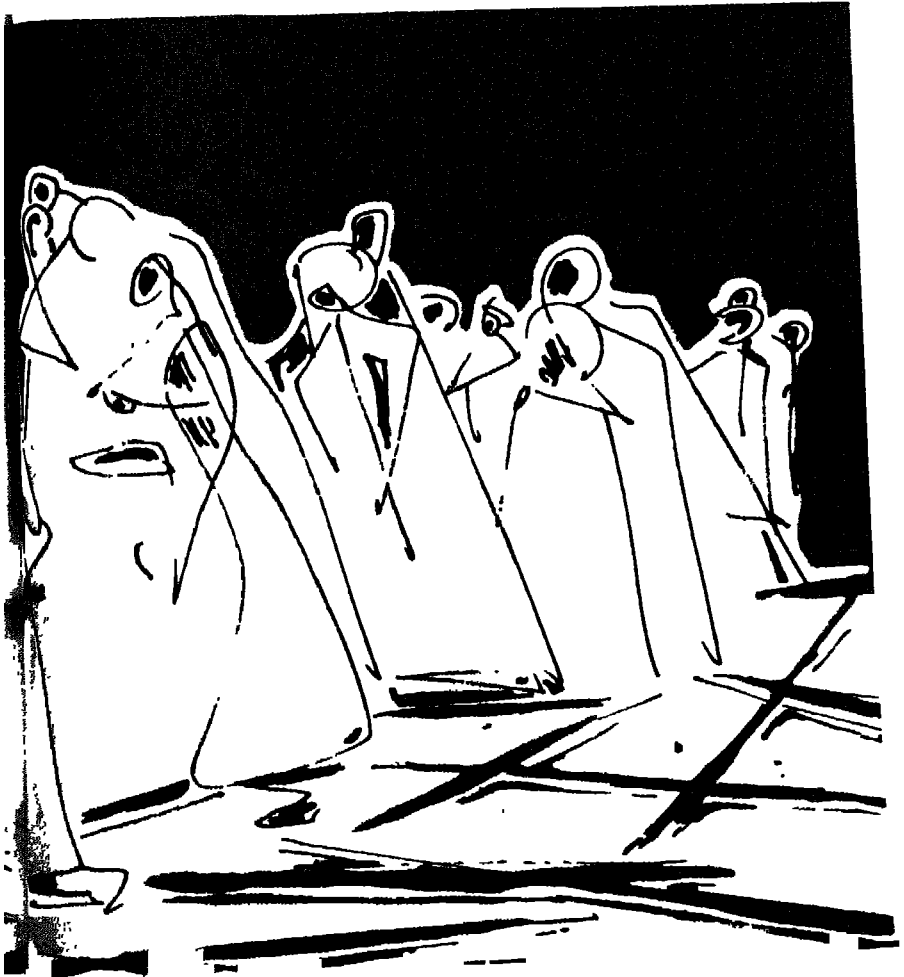
And on a day, as Phardrous, the Greek, walked in the Garden, he struck his foot upon a stone and he was angered. And he turned and picked up the stone, saying in a low voice: "O dead thing in my path!" and he flung away the stone.

And Almustafa, the chosen and the beloved, said: "Why say you: 'O dead thing'? Have you been thus long in this Garden and know not that there is nothing dead here? All things live and glow in the knowledge of the day and the majesty of the night. You and the stone are one. There is a difference only in heart-beats. Your heart beats a little faster, does it, my friend? Ay, but it is not so tranquil.

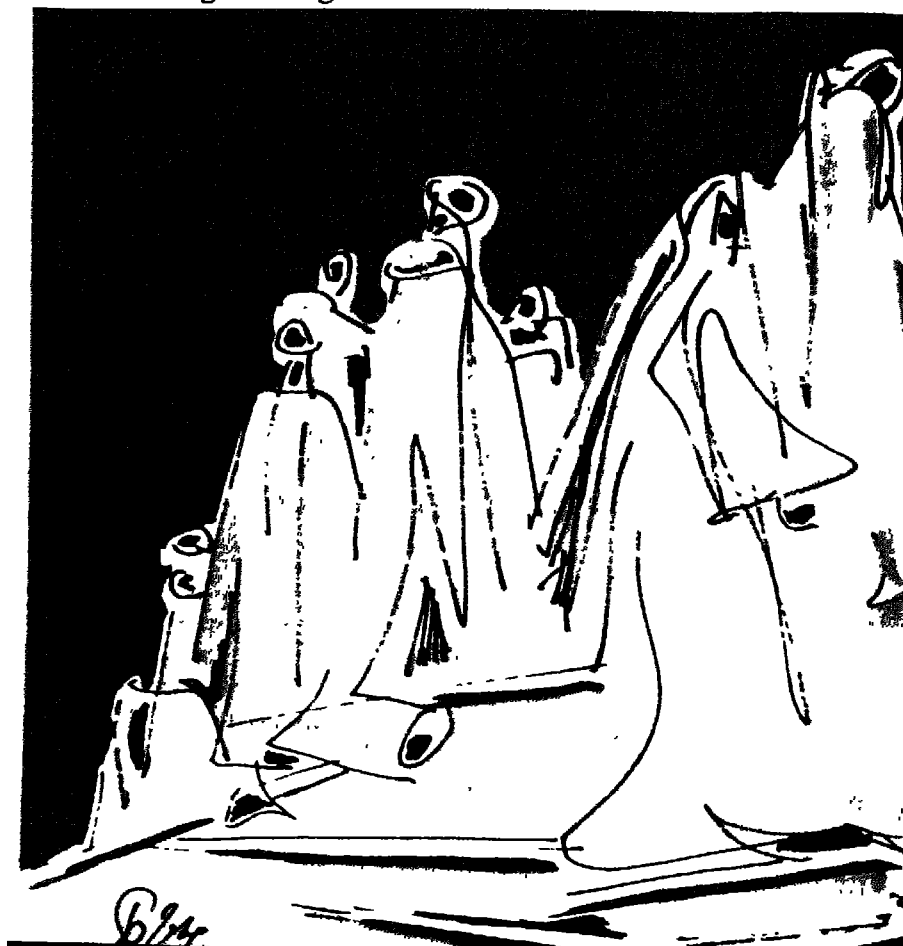
"Its rhythm may be another rhythm, but I say unto you that if you sound the depths of your soul and scale the heights of space, you shall hear but one melody, and in that melody the stone and the star sing the one with the other, in perfect unison.

"If my words reach not your understanding, then let be until another dawn.

غفلتك عشرت به، فهل تلوّمنّ النّجم إذا اصطدم به
رأسك وهو سابحٌ في الفضاء؟ ألا ليأتينّ اليوم الذي
ستجمعُ فيه الحجارة والنجوم، كما يقطفُ الطفلُ زنابق
الوادي، وتعلمنّ عندئذ أن الأشياء كلها تحيا وتتضوّع
بالعير».



If you have cursed this stone because in your blindness you have stumbled upon it, then would you curse a star if so be your head should encounter it in the sky. But the day will come when you will gather stones and stars as a child plucks the valley-lilies, and then shall you know that all these things are living and fragrant.”



وفي اليوم الأول من الأسبوع حين طرقت رنات أجراس المعبد أذانهم، تكلم واحد منهم فقال: «إنا نسمع هنا كلاماً كثيراً عن الله أيها السيد، فما قولك فيه؟ ومن هو في كُنه الحقيقة؟».

ووقف المصطفى كشجرة فتية لا تهاب ريحاً ولا عاصفة، وأجاب قائلاً: «تخيلوا الآن أيها الصحاب والأحباب قلباً يسعُ قلوبكم جميعاً، وحباً يشمل حبكم جميعاً، وروحاً تحيطُ بأرواحكم جميعاً، وصوتاً يضمُّ أصواتكم جميعاً، وسكينةٌ أعمق من سكينتكم جميعاً، سكينةٌ أزليةٌ أبديةٌ لا يحدّها زمان».

«ارجعوا إلى جُماع أنفسكم، باحثين عن جمال تفوق روعته روعة كل جمال، وعن أغنية أبعد صيتنا من أغاني البحر والغاب، وعن جلال يستوي على العرش، عرشُ الجوزاء بالقياس إليه مقعدٌ ضئيل، ويمسك بصولجان، " الثريا " بالقياس إليه ومضة من ومضات قطر الندى».

«ولئن كنتم تسعون دائماً إلى الرزق والمأوى، وتلمسون الكساء وعكازاً تعتمدون عليه، فلتسعوا الآن إلى «الواحد الأحد» الذي لا هو بهدف تُصيبه سهامكم، ولا هو بكهف صخري يقيمكم أذى الطبيعة.

And on the first day of the week when the sounds of the temple bells sought their ears, one spoke and said: “Master, we hear much talk of God hereabout. What say you of God, and who is He in very truth?”

And he stood before them like a young tree, fearless of wind or tempest, and he answered saying: “Think now, my comrades and beloved, of a heart that contains all your hearts, a love that encompasses all your loves, a spirit that envelops all your spirits, a voice enfolding all your voices, and a silence deeper than all your silences and timeless.

“Seek now to perceive in your selffulness a beauty more enchanting than all things beautiful, a song more vast than the songs of the sea and the forest, a majesty seated upon a throne for which Orion is but a footstool, holding a scepter in which the Pleiades are naught save the glimmer of dewdrops.

“You have sought always only food and shelter, a garment and a staff; seek now One who is neither an aim for your arrows nor a stony cave to shield you from the elements.

«فإن وقعتْ كلماتي عليكم وقع الصّخور في ثقلها والألغاز في خفائها، فجدّوا في البحث إلى أن تنشقّ قلوبكم وتهدّيكُم من حيرتكم إلى حبّ العليّ المتعال وحكمته، ذلك الذي يُسمّيه الناس الله» .

وسكتوا . . . جميعاً، وحارت قلوبهم، واهتزّت نفس المصطفى رحمة بهم، وتطلّع إليهم في حنان، وقال: فلنكفّ الآن عن الحديث عن الله المهيمن، ولتحدّث عن الأرباب من جيرانكم وإخوتكم، تلك الأرواح التي تطوف بيوتكم وحقولكم.

لكم تودّون أن ترقّوا إلى السّحب على جناح الخيال، فتخالوا هذا سمواً، وأن تعبروا الخضمّ الرّحيب فتحسبوه أمداً .

لكني أقول لكم: إنكم حين تبذرون حبة في الثرى فأنتم تبلغون ما فوق الدُّرى، وحين تُشيدون لجيرانكم بجمال الصبح، فأنتم تعبرون خضمّاً أرحب .

«وما أكثر ما تسبّحون بذكر الله السّرمديّ، لكنكم في الحق لا تُصغون إلى تسبيحاتكم . ليتكم تنصتوا

“And if my words are a rock and a riddle, then seek, none the less, that your hearts may be broken, and that your questionings may bring you unto the love and the wisdom of the Most High, whom men call God.”

And they were silent, every one, and they were perplexed in their heart; and Almustafa was moved with compassion for them, and he gazed with tenderness upon them and said: “Let us speak no more now of God the Father. Let us speak rather of the gods, your neighbours, and of your brothers, the elements that move about your houses and your fields.

“You would rise in fancy unto the cloud, and you deem it height; and you would pass over the vast sea and claim it to be distance. But I say unto you that when you sow a seed in the earth, you reach a greater height; and when you hail the beauty of the morning to your neighbour, you cross a greater sea.

“Too often do you sing God, the Infinite, and yet in truth you hear not the song. Would

that you might listen to the song-birds, and to the leaves that forsake the branch when the wind passes by, and forget not, my friends, that these sing only when they are separated from the branch!

“Again I bid you to speak not so freely of God who is your All, but speak rather and understand one another, neighbour unto neighbour, a god unto a god.

“For what shall feed the fledgling in the nest if the mother bird flies skyward? And what anemone in the field shall be fulfilled unless it be husbanded by a bee from another anemone?

“It is only when you are lost in your smaller selves that you seek the sky which you call God. Would that you might find paths into your vast selves; would that you might be less idle and pave the roads!

إلى الطيور المغرّدة، وإلى أوراق الشجر وهي تساقط
من أغصانها حين تمرُّ بها الريح. ثم لا تنسوا أيها
الصّحاب، أنها لا تُشدو إلا حين تنفصل عن
الغصن!

وإني لأعود فأهيب بكم ألا تترخّصوا في الحديث
عن الله الذي هو أنتم جميعاً، وخيرٌ لكم أن يتحدّثُ
كلُّ منكم إلى صاحبه وأن يفهمَ عنه، وليكن حديثه إليه
حديث الجار إلى الجار، والرب إلى الرب.

فَمَنْ ذا الذي يُطعمُ الفرخَ المَرِيشَ في عُشِّه إذا ما
طارت عنه أمه محلّقةً في السماء؟ وأية شقيقة من
شقائق النعمان في الحقل يكملُ غمّوها إن لم تلقحها
نحلةٌ من شقيقة أخرى؟ .

إنكم لا تتجهون إلى السماء التي تدعونها الله إلا
حينما تضلّون بينكم وبين ذاتكم الصغرى. وباليّتكم
تلتمسون الأسباب إلى ذاتكم العليا، وتُضنون عنكم
شيئاً من توانيكم، وتعبّدون السبيل إليها! .

“My mariners and my friends, it were wiser to speak less of God, whom we cannot understand, and more of each other, whom we may understand. Yet I would have you know that we are the breath and the fragrance of God. We are God, in leaf, in flower, and oftentimes in fruit.”

أيها الملاحون والأصدقاء، لقد كان أحجى بنا أن نقتصد في الحديث عن الله الذي يعزُّ علينا أن نفهمه، وأن يكثرَ حديثُ بعضنا عن بعض، فذلك أقربُ إلى الأفهام. على أنني وددتُ لو تدركون أننا أنفاسُ الله وشذاه. وأنا الله، ماثلاً في ورقة الشجر، وفي الزهرة، بل وفي الثمرة أكثر الأحيان.





وذات صباح حين كانت الشمس تتوسّط كبد السماء، اقترب منه أحد مُريديه، وكان واحدا من هؤلاء الثلاثة الذين شهدوا ملاعب صباه، وقال: "لقد بلّى ثوبي أيها المعلم ولست أملك ثوباً سواه، فأذن لي أن أقصد السوق أساوم على غيره، لعلّي أظفرُ بثوب جديد".

وألقى المصطفي نظرةً على الشاب وقال: «إليّ بثوبك». ففعل الرجل ما أمره به المصطفي، ووقف عارياً في وضح النهار.

وقال المصطفي في صوت يُشبه صوت مُهر فتيةٍ يعدو فوق الطريق: «لا يعيش في النور إلا العريان، ولا يمتطي الريح إلا الغرُّ الساذج، ومن يضلّ طريقه ألف مرة ينعم وحده بالعودة إلى دياره».

«لقد ضاقت الملائكة بالأريب الماهر، وقد هتف بي بالأمس القريب ملاكٌ من الملائكة فقال: إنما خلقنا الجحيم للمتباهين. وهل غير النار شيءٌ يُذيب الغشاوات المتوهّجة حتى تنجلي الحقائق؟».

فقلت: «ولكنكم بخلقكم الجحيم، خلقتم زبانيةً

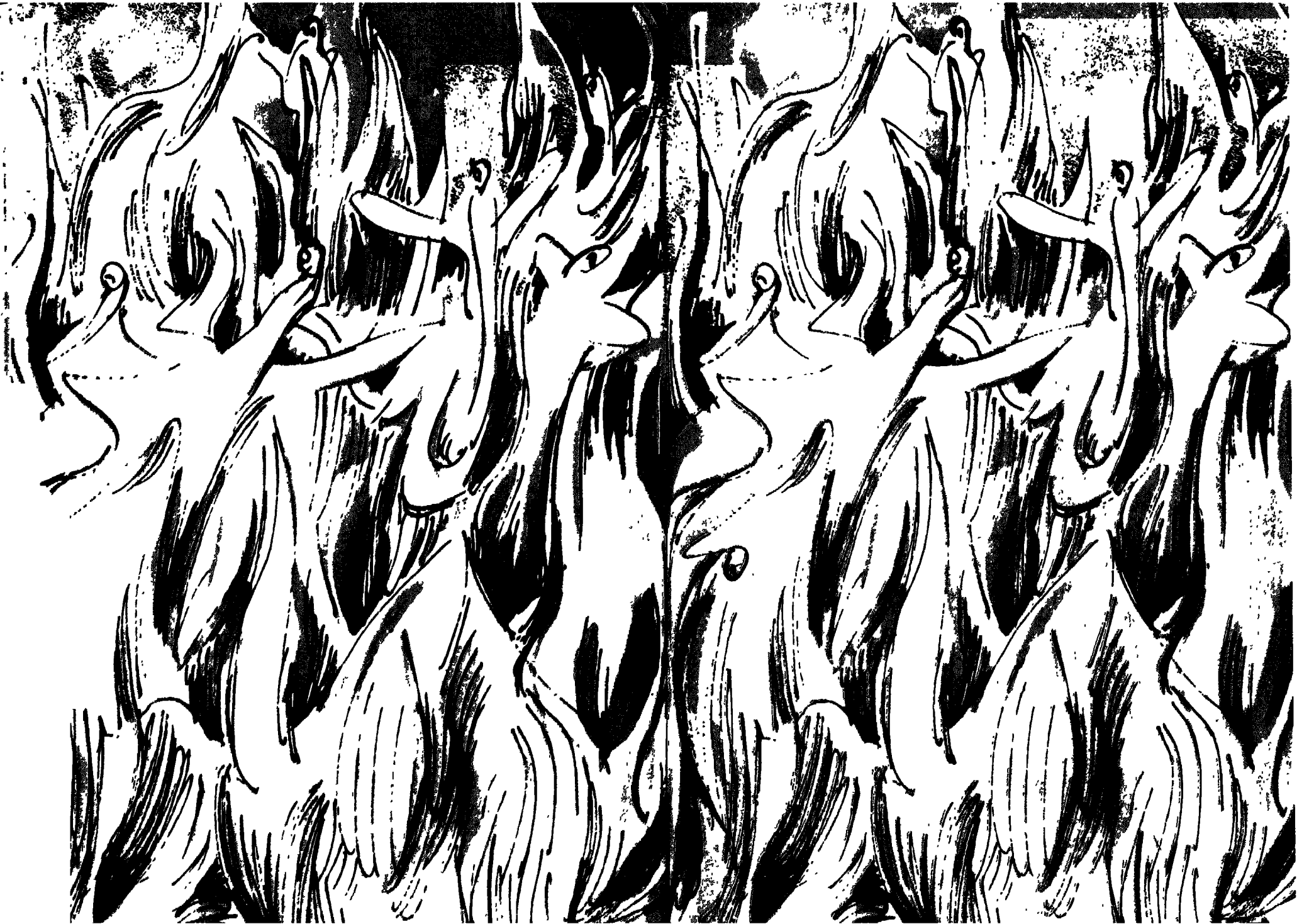
And on a morning when the sun was high, one of the disciples, one of those three who had played with him in childhood, approached him saying: “Master, my garment is worn, and I have no other. Give me leave to go unto the market-place and bargain that perchance I may procure me new raiment.”

And Almustafa looked upon the young man, and he said: “Give me your garment.” And he did so and stood naked in the noonday.

And Almustafa said in a voice that was like a young steed running upon a road: “Only the naked live in the sun. Only the artless ride the wind. And he alone who loses his way a thousand times shall have a home-coming.

“The angels are tired of the clever. And it was but yesterday that an angel said to me: ‘We created hell for those who glitter. What else but fire can erase a shining surface and melt a thing to its core?’

“And I said: ‘But in creating hell you created devils to govern hell.’ But the angel



تَسُوْسُهُ». فأجابني الملاك: كلا، فإن مَنْ بيدهم أمر الجحيم لا تَمْسُهُم النار.

«ألا ما أشدَّ حكمة هذا الملاك! إنه ليعلم سُبُل الناس وسُبُل أنصاف الناس، وإنه لواحد من الملائكة المقربين يهبطون إلى الأرض لهداية الأنبياء الذين يفتنهم الدهاة الحاذقون. ولا شك أنه يضحك حين يضحك الأنبياء ويكي أيضا حين يكون».

«إي ملاحى وصحابي: العريان وحده يعيش في الشمس، ومن لا دَقَّة له يستطيع وحده أن يخرَّ عباب البحر الأكبر. ومن تُضاجع ظلمة نفسه ظلمة الليل هو وحده الذي يستيقظ مع الفجر. وذلك الذي يغفو مع الجذور تحت الجليد هو وحده الذي يُدرك الربيع».

«فأنتم كالجذور. أجل كالجذور في بساطتها، لكنكم تكسبون الحكمة من الثرى. وأنتم ساكنون صامتون، على أنكم تطوؤون في غصونكم التي لم تنبت بعد تراتيل الرياح الأربع».

«وأنتم ضعاف واهنون، لم تستووا بعد على صورة، ولكن فيكم بشائر السنديانة الضخمة، ومخايل الصفصافة أو شكت أن ترسم على صفحة السماء».

answered: 'Nay, hell is governed by those who do not yield to fire.'

"Wise angel! He knows the ways of men and the ways of halfmen. He is one of the seraphim who come to minister unto the prophets when they are tempted by the clever. And no doubt he smiles when the prophets smile, and weeps also when they weep.

"My friends and my mariners, only the naked live in the sun. Only the rudderless can sail the greater sea. Only he who is dark with the night shall wake with the dawn, and only he who sleeps with the roots under the snow shall reach the spring.

"For you are even like roots, and like roots are you simple, yet you have wisdom from the earth. And you are silent, yet you have within your unborn branches the choir of the four winds.

"You are frail and you are formless, yet you are the beginning of giant oaks, and of the half-pencilled pattern of the willows against the sky.

“Once more I say, you are but roots betwixt the dark sod and the moving heavens. And oftentimes have I seen you rising to dance with the light, but I have also seen you shy. All roots are shy. They have hidden their hearts so long that they know not what to do with their hearts.

“But May shall come, and May is a restless virgin, and she shall mother the hills and plains.”

«وإني لأعود فأردد
لكم القول: إنكم لستم
إلا جذورا تستكن بين
الثرى الداكن والسموات
السابحة. وما أكثر ما
رأيتكم تنهضون لمراقبة
الضياء، ولكني رأيتكم
أيضا هيبابين. وكل
الجذور تهاب الضياء،
فقد أخفت قلوبها طويلا
حتى حارت ماذا تفعل
بهذي القلوب.

على أن الربيع سوف
يقبل، والربيع عذراء
قلقة تهفو كالأم إلى
احتضان الربى
والسهول».



وتوسل إليه سادن من سَدنة المعبد فقال: " أيها المعلم . . . اهدنا حتى تكون كلماتنا ككلماتك، أنشودة للناس وبخُوراً".

فأجابه المصطفي قائلاً: «لسوف تخلقون فوق كلماتكم، غير أن سييلكم سيظل ترتيلاً وعبيراً، ترتيلاً للمحبين ولكل محبوب، وعبيراً لأولئك الذين يودون أن يحيوا حياتهم في بستان».

على أنكم سوف تخلقون فوق كلماتكم حتى تبلغوا قمة يتساقط عليها غبار النجوم، وسوف تبسطون أيديكم حتى تمتلىء، ثم ترقدون وتنامون كالفرخ المريش في عش أبيض، وتحلمون بغدكم كما تحلم زهور البنفسج البيضاء بالربيع.

أجل، وستهبطون إلى أعماق مما تهبط إليه كلماتكم، وتلتمسون المنابع المجهولة للجداول، وتُصبحون كهفًا خفيًا تتجاوب فيه الأصدااء الخافتة في الأعماق التي تغيب الآن عن أسماعكم.

لسوف تهبطون إلى أعماق مما تهبط إليه كلماتكم، بل أعماق من الأصوات جميعاً، إلى السويداء من قلب

And one who had served in the Temple besought him saying: "Teach us, Master, that our words may be even as your words, a chant and an incense unto the people."

And Almustafa answered and said: "You shall rise beyond your words, but your path shall remain, a rhythm and a fragrance; a rhythm for lovers and for all who are beloved, and a fragrance for those who would live life in a garden.

"But you shall rise beyond your words to a summit whereon the star-dust falls, and you shall open your hands until they are filled; then you shall lie down and sleep like a white fledgling in a white nest, and you shall dream of your to-morrow as white violets dream of spring.

"Ay, and you shall go down deeper than your words. You shall seek the lost fountain-heads of the streams, and you shall be a hidden cave echoing the faint voices of the depths which now you do not even hear.

"You shall go down deeper than your words, ay, deeper than all sounds, to the very

الأرض ، وهناك ستكونون معه وحدكم . . . ذلك الذي يسير أيضا على طريق المجرة» .

وبعد برهة سأله حوارِي وقال : «حدثنا عن الوجود أيها المعلم ، وما هو كُنْه الوجود؟» .

ونظر إليه المصطفى ملياً وفاض قلبه بحبّه . ثم نهض وسار بعيدا عنهم ، وعندما عاد ، قال : «في هذه الحديقة يرقد أبي وترقد أمي وقد سدّتهما الثرى أيدي الأحياء . وفي هذه الحديقة تغيب بذور السنة الماضية ، حملتها إلى هنا أجنحة الريح . ولسوف يرقد في الثرى ألف مرة جثمان أبي وجثمان أمي ، وألف مرة ستواري الريحُ البذور ، ولسوف نُقبل معا بعد ألف عام ، أنا وأنتم وهذه الزهرات ، إلى هذه الحديقة كما هي حالنا الآن فيتحقق وجودنا ، وسنكون من عشاق الحياة ، وسنكون من الحالمين بالفضاء ، وسنكون من الصّاعدين صوب الشمس .

«غير أننا اليوم كي نبقي ، لا بد أن نكون حكماء دون أن نزور عن الحمقى ، وأن نكون أقوياء دون أن نعصف بالضعفاء ، وأن نلعب مع الأطفال الصغار فلا

heart of the earth, and there you shall be alone with Him who walks also upon the Milky Way.”

And after a space one of the disciples asked him saying: “Master, speak to us of being. What is it to *be*?”

And Almustafa looked long upon him and loved him. And he stood up and walked a distance away from them; then returning, he said: “In this Garden my father and my mother lie, buried by the hands of the living; and in this Garden lie buried the seeds of yesteryear, brought hither upon the wings of the wind. A thousand times shall my mother and my father be buried here, and a thousand times shall the wind bury the seed; and a thousand years hence shall you and I and these flowers come together in this Garden even as now, and we shall *be* loving life, and we shall *be* dreaming of space, and we shall *be* rising toward the sun.

“But now today to *be* is to be wise, though not a stranger to the foolish; it is to be strong, but not to the undoing of the weak; to play



نُشعرهم بأننا آباء، بل نلعب معهم كما يلعب الرفقاء،
يودون أن يتعلموا ألعابهم.

عليكم أن تكونوا بسطاء في غير حُبث مع المُستين
من الرجال والمُستات من النساء، وتجلسوا معهم في
ظل السنديانة العتيقة، وإن كنتم لا تزالون في ريق
العمر وربيع الحياة.

عليكم أن تسعوا إلى الشاعر ولو كان يقيم وراء
الأنهار السبعة، وأن تُبدوا الطمأنينة في حَضْرته، لا
تطلبوا حاجة، ولا تُظهروا شكًا، ولا يطوف بشفاهكم
ظل لسؤال.

واعلموا أن القديس والأثم توأم، أبوهما ملكنا
الرحيم، وأن أحدهما قبد وكذ قبل أخيه بلحظة،
فجعلناه له وليًا.

هيموا وراء الجمال واتبعوه وإن قادكم إلى شفا
الهاوية. أجل، اتبعوه وإن كان ذا جناح وأنتم لا جناح
لكم، اتبعوه وإن انتهى بكم إلى الهاوية. اتبعوه، فإن
افتقدتم الجمال، افتقدتم كل شيء.

with young children, not as fathers, but rather as playmates who would learn their games;

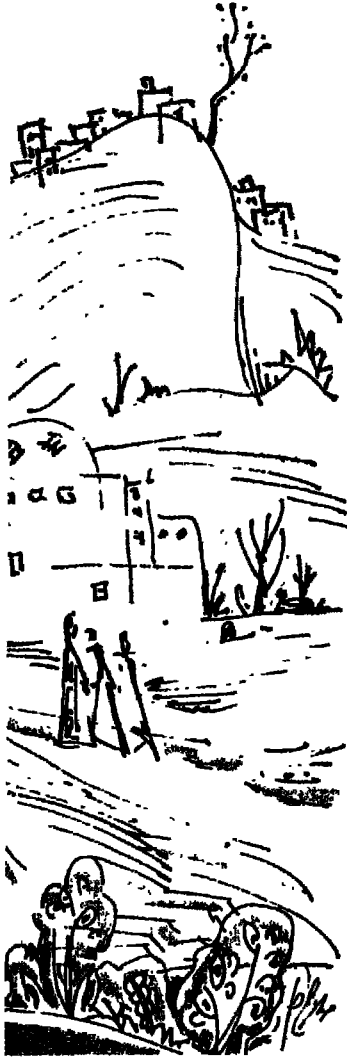
“To be simple and guileless with old men and women, and to sit with them in the shade of the ancient oak-trees, though you are still walking with Spring;

“To seek a poet though he may live beyond the seven rivers, and to be at peace in his presence, nothing wanting, nothing doubting, and with no question upon your lips;

“To know that the saint and the sinner are twin brothers, whose father is our Gracious King, and that one was born but the moment before the other, wherefore we regard him as the Crowned Prince;

“To follow Beauty even when she shall lead you to the verge of the precipice; and though she is winged and you are wingless, and though she shall pass beyond the verge, follow her, for where Beauty is not, there is nothing.”

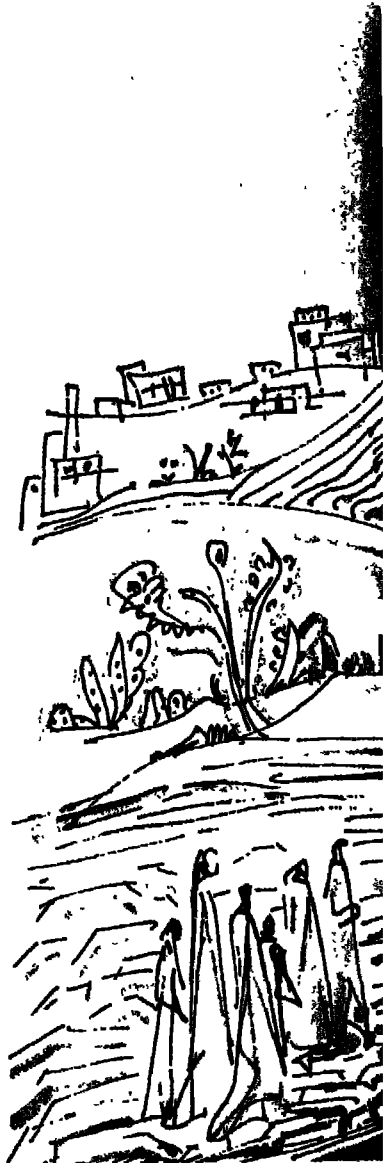
كونوا حديقة غير ذات
أسوار، وكرمة لا حارس
دونها، وكنزا مباحا ينالُ
منه كل عابر .



عيشوا نهباً لسرق
السارق، وغش الغاش،
وخداع الخداع. أجل،
كونوا صيداً للخديعة
وارتموا في حبالها ولو
سخر منكم الناس، فليس
هذا كله بضائركم . إنكم
عندها سوف تُشرفون من
عليائكم وتبتسمون ،
عالمين أن الربيع سيوافي
حديقتكم من بعد ليرقص
على أوراق الشجر، وأن
الخريف سيُقبل ليُنضج
أعنانكم، مدركين أن
أيديكم لن تخلو من الرزق

“To be a garden
without walls, a vine-
yard without a guar-
dian, a treasure-house
for ever open to
passers-by;

“To be robbed,
cheated, deceived, ay,
mised and trapped
and then mocked, yet
with it all to look
down from the height
of your larger self and
smile, knowing that
there is a spring that
will come to your
garden to dance in
your leaves, and an
autumn to ripen your
grapes; knowing that
if but one of your
windows is open to
the East, you shall



ما دامت نافذةً واحدةً من نوافذكم تطلّ على المشرق ،
موقنين أن جميع من يعدّهم الناس أشرارا ولصوصا
وغاشين ومخادعين هم إخوانكم في الحاجة . ولعلكم
أنتم على شاكلة هؤلاء جميعا في عين أهل النعيم
الذين يسكنون تلك المدينة المكنونة التي تسمو فوق
هذه المدينة .

وبعد ، فإنني أوجه الخطاب إليكم أيضا يا من تصوّر
أيديكم وتُبدع الأشياء التي نحتاج إليها لمتعة أيامنا
وليالينا .

"لكي تكونوا فانسجوا بأصابع تُبصر ، وابنوا ملقنين
بالأ للضياء والفضاء ، وكونوا حارثين تحسّون أنكم
تُخفون مع كل حبة تبذرونها كنزا ، وكونوا صيادي
سمك وقناصين يرحمون السمك ويترققون بوخس
الغاب ، يأخذهم مزيد من الشفقة بالجوعى
والمُعوزين .

«وأهم من هذا كله أقول لكم : وددت لو أن كلاً
منكم وكلّكم جميعا يشارك في الغاية التي يسعى إليها
كل إنسان سواه ، فبهذا وحده يكون أملككم في بلوغ
غایتكم الطيبة» .



never be empty; knowing that all those deemed wrongdoers and robbers, cheaters and deceivers are your brothers in need, and that you are perchance all of these in the eyes of the blessed inhabitants of that City Invisible, above this city.

“And now, to you also whose hands fashion and find all things that are needful for the comfort of our days and our nights .

“To *be* is to be a weaver with seeing fingers, a builder mindful of light and space; to be a ploughman and feel that you are hiding a treasure with every seed you sow; to be a fisherman and a hunter with a pity for the fish and for the beast, yet a still greater pity for the hunger and need of man.

“And, above all, I say this: I would have you each and every one partners to the purpose of every man, for only so shall you hope to obtain your own good purpose.

«أي رفاقي وأحبابي، فلتتذرعوا بالشجاعة لا
الاستكانة، ولتكونوا رَحْبِي الباع غير مُضَيِّقِينَ على
أنفسكم؛ ولتكونوا حتى ساعتِي الأخيرة وساعتكم
جديرين حقاً بذواتكم العليا».

ثم أمسك المصطفي عن الكلام، وخيم على مُريديه
التسعة وجوم شديد، وتحولت قلوبهم عنه، فقد
عجزوا عن فهم كلماته.

وفجأة هَمَّتْ نفوسُ الملاحين الثلاثة إلى البحر،
وأولئك الذين قاموا على خدمة المعبد عاودهم الحنين
إلى التماس السكينة في المحراب. أما الذين شهدوا
ملاعب صباه فقد تطلَّعوا إلى السوق. وصدَّوا جميعاً
عن كلماته، فارتدَّتْ إليه ملتَمِسَةً المأوى التماسَ
أسرابِ الطيور الشريدة.

وسار المصطفي بعيداً عنهم في الحديقة، لا يفوه
بكلمة، ولا يُلقِي عليهم نظرة.

وبدأوا يتدبَّرون الأسباب فيما بينهم، ويلتمسون
المعاذير لشوقهم إلى الرحيل.



“My comrades and my beloved, be bold and not meek; be spacious and not confine; and until my final hour and yours be indeed your greater self.”

And he ceased from speaking and there fell a deep gloom upon the nine, and their heart was turned away from him, for they understood not his words.

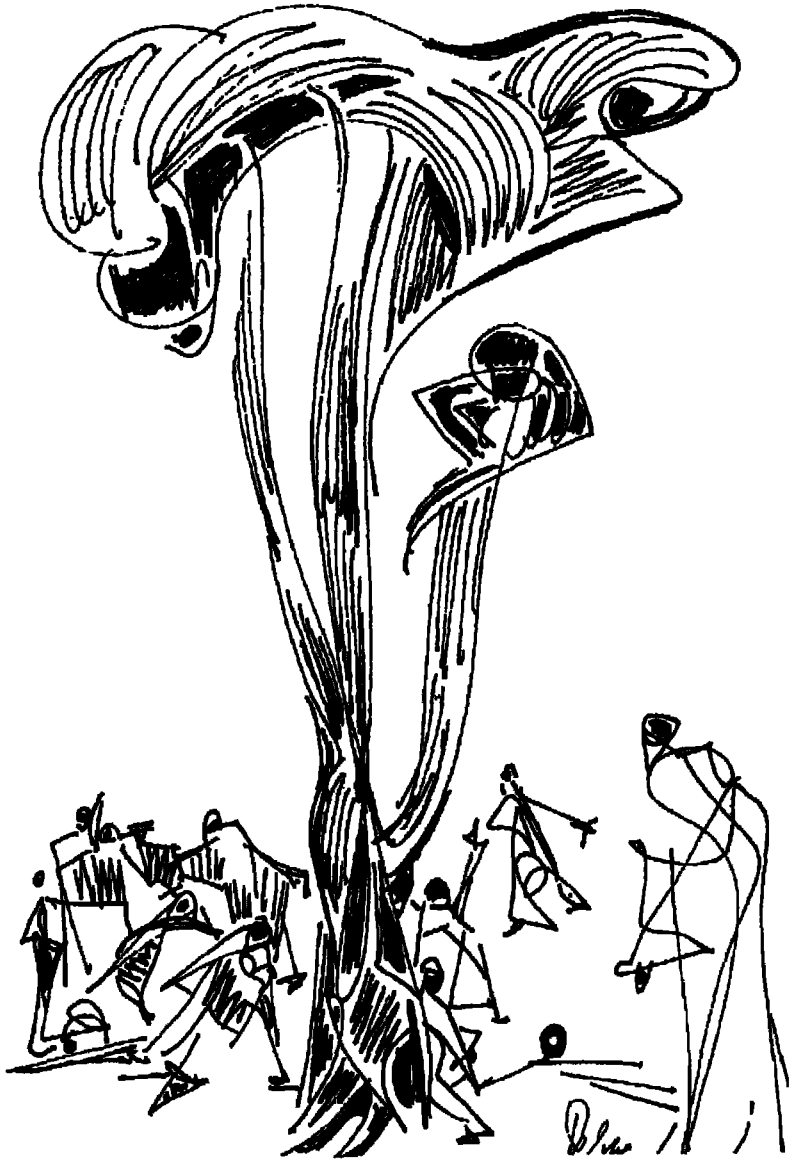
And behold, the three men who were mariners longed for the sea; and they who had served in the Temple yearned for the consolation of her sanctuary; and they who had been his playfellows desired the market-place. They all were deaf to his words, so that the sound of them returned unto him like weary and homeless birds seeking refuge.

And Almustafa walked a distance from them in the Garden, saying nothing, nor looking upon them.

And they began to reason among themselves and to seek excuse for their longing to be gone.

And behold, they turned and went every man to his own place, so that Al-mustafa, the chosen and the beloved, was left alone.

وسرعان ما أداروا
وجوههم، ومضى كلُّ
منهم إلى قصده . . .
وهكذا بقي المصطفى
المختار الحبيب وحده .



فلما ادلهم الليل، تحسّس خطاه نحو قبر أمه،
وجلس تحت شجرة الأرز النابتة فوقه. وهنالك رفّ
طيفُ ضوءٍ عظيم في صفحة السماء، وتألّقت الحديقةُ
تألّق الجوهرة الخلابّة فوق صدر الأرض.

وندّت عن المصطفي صرخةٌ صادرةٍ من وحدة روحه
وقال:

قد ناءت روحي بما تحملُ من ثمرات ناضجة، فهل
من يأتي ويقطفُ منها وتطيبُ بها نفسه؟ ألا من صائم
كريم النفس سخي القلب يأتي ويفطر معي على باكورةٍ
ما أنضجته للشمس من ثماري، فيريحني من ثقل ما
أحمل من خيرات؟.

إن روحي لتفيضُ متدفقةً مع خمر العصور، فهل
من ظامئ يأتي ويروي منها غلته؟.

انظروا: ذات مرة وقف رجلٌ في مفترق الطرق
باسطاً يديه للعابرين وقد امتلأت بالحلبيّ والجوهر،
وهتف بهم قائلاً: رحمةً بي، خذوا تما معي. سألتكم
الله أن تأخذوا ما في يدي كي تُريحوا خاطري.

And when the night was fully come, he took his steps to the grave-side of his mother and sat beneath the cedar-tree which grew above the place. And there came the shadow of a great light upon the sky, and the Garden shone like a fair jewel upon the breast of earth.

And Almustafa cried out in the aloneness of his spirit, and he said:

“Heavy-laden is my soul with her own ripe fruit. Who is there would come and take and be satisfied? Is there not one who has fasted and who is kindly and generous in heart, to come and break his fast upon my first yieldings to the sun thus ease me of the weight of mine own abundance?

“My soul is running over with the wine of the ages. Is there no thirsty one to come and drink?

“Behold, there was a man standing at the cross-roads with hands stretched forth unto the passers-by, and his hands were filled with jewels. And he called upon the passers-by, saying: ‘Pity me, and take from me. In God’s name, take out of my hands and console me.’

غير أن المارة قنعوا بالتطلع إليه، ولم يأخذ واحداً
منهم شيئاً.

ألا ليته كان شحاً إذا يمدّ يده ليأخذ، أجل يمدّ يداً
راجفة ثم يردّها إلى صدره فارغة، فذلك خير من أن
يمدّ يداً مليئة بنفيس العطايا، فلا يجد من يأخذ منه.

انظروا: لقد كان هناك أيضاً أمير جليل، نصّب
خياما من حرير بين الجبل والصحراء، وأمر أتباعه أن
يُشعلوا النار هدياً للغريب وعلامة للضال، وأرسل
عيده ليرقبوا الطريق لعلّهم يصادفون ضيفا. غير أن
شعاب الصحراء أفقرت ولم تجدْ بإنسان.

ألا ليت ذلك الأمير كان رجلا مجهولا لا زمان له
ولا مكان، يلتمس الطعام والمأوى. ألا ليته كان شريفاً
لا يحمل إلا عصاه وجرّة من فخار، فقد كان حربياً أن
يلتقي بمن هم على شاكلته من شعراء مجهولين،
فيشاركهم سؤالهم وذكرياتهم وأحلامهم كلما أسدل
الليل ستاره.

“But the passers-by only looked upon him, and none took out of his hand.

“Would rather that he were a beggar stretching forth his hand to receive - ay, a shivering hand, and brought back empty to his bosom - than to stretch it forth full of rich gifts and find none to receive.

“And behold, there was also the gracious prince who raised up his silken tents between the mountain and the desert and bade his servants to burn fire, a sign to the stranger and the wanderer; and who sent forth his slaves to watch the road that they might fetch a guest. But the roads and the paths of the desert were unyielding, and they found no one.

“Would rather that prince were a man of nowhere and nowhen, seeking food and shelter. Would that he were the wanderer with naught but his staff and an earthen vessel. For then at nightfall would he meet with his kind, and with the poets of nowhere and nowhen, and share their beggary and their remembrances and their dreaming.

“And behold, the daughter of the great king rose from sleep and put upon her silken raiment and her pearls and rubies, and she scattered musk upon her hair and dipped her fingers in amber. Then she descended from her tower to her garden, where the dew of night found her golden sandals.

“In the stillness of the night the daughter of the great king sought love in the garden, but in all the vast kingdom of her father there was none who was her lover.

وانظروا، تلك ابنة
الملك العظيم، نهضت
من نومها ودلّقتُ في
ثوب من حرير وأزّينت
باللآلئ والياقوت،
ونضحت شعرها
بالمسك، وغمست
أصابعها في العنبر، ثم
هبطت من بُرجها إلى
الحديقة، ولا مس نعلها
الذهبي ندى الليل.

وفي سكون الليل
نشّدتُ ابنة الملك العظيم
الحب في الحديقة، غير
أنها لم تجد في مُلك أبيها
الواسع جميعاً مَنْ خفق
قلبه بحبّها.



ألا ليتها كانت ابنة فلاح ترعى غنم أبيها في الحقل
وتؤوب إلى داره مع المساء، وقد علق ثراب الدروب
بقدميها، وعبقت طيات ثوبها بعبير الكروم، فإذا حلّ
المساء ورفرف ملاك الليل على العالم، استرقت
الخُطى صوب الوادي حيث الحبيب في انتظارها.

ألا ليتها كانت راهبة في دير تحرق قلبها بخوراً
يتصاعد مع الريح، وتبذل نفسها شمعةً يتسامى
ضوءها إلى النور الأسمى، هي ونفوس كل متعبّد
وكل عاشق ومعشوق.

ألا ليتها كانت امرأة عريقة بسنيها الطوال تجلس في
ضوء الشمس وتذكر من شاركها الشباب.

وأمعن الليل في الظلمة، وأظلمت نفس المصطفى
مع الليل، وغدت روحه كالسحابة المثقلة لم تنفض
عنها حلمها، ثم صاح مرة أخرى:

لشدّ ما هي مثقلةً بشمارها. ألا من يأتي الآن ليصيب
منها حتى يقنع؟

“Would rather that she were the daughter of a ploughman, tending his sheep in a field, and returning to her father’s house at eventide with the dust of the curving roads upon her feet, and the fragrance of the vineyards in the folds of her garment. And when the night is come, and the angel of the night is upon the world, she would steel her steps to the river-valley where her lover waits.

“Would that she were a nun in a cloister burning her heart for incense, that her heart may rise to the wind, and exhausting her spirit, a candle, for a light arising toward the greater light, together with all those who worship and those who love and are beloved.

“Would rather that she were a woman ancient of years, sitting in the sun remembering who had shared her youth.”

And the night waxed deep, and Almustafa was dark with the night, and his spirit was as a cloud unspent. And he cried again:

“Heavy-laden is my soul with her own ripe fruit;

إن روعي تفيضُ بخمرها، هل مَنْ يُريقها الآن
ويشربُ ويطفئُ لهيبَ البيداءِ اللافحِ؟

ألا ليتني كنت شجرة بلا زهر، وشجرة بلا ثمر.

فإن ألمَ السَّعةِ والوفرة أمرٌ من ألمِ الإملاقِ
والإجدابِ.

وحسرة الغنيّ الذي لا يجد مَنْ يأخذ منه أشدّ من
حسرة السائل الذي لا يجد أحدا يعطيه.

ألا ليتني كنت عينا جافة نضبَ معينها، يُلقى فيها
الناس بالحجارة.

فلعمري إن ذلك لأكرم على النفس وأهون من أن
أكون منبعاً للماء الجيَّاش يمرّ به الناس فلا
يشربون.

ألا ليتني كنت قصبَةً تطوّرها الأقدام،

Heavy-laden is my soul with her fruit.
Who now will come and eat and be
fulfilled?

My soul is overflowing with her wine.
Who now will pour and drink and be
cooled of the desert heat?

“Would that I were a tree flowerless and
fruitless,
For the pain of abundance is more bitter
than barrenness,

And the sorrow of the rich from whom no
one will take,
Is greater than the grief of the beggar to
whom none would give.

“Would that I were a well, dry and
parched, and men throwing stones into me;
For this were better and easier to be borne
than to be a source of living water
When men pass by and will not drink.

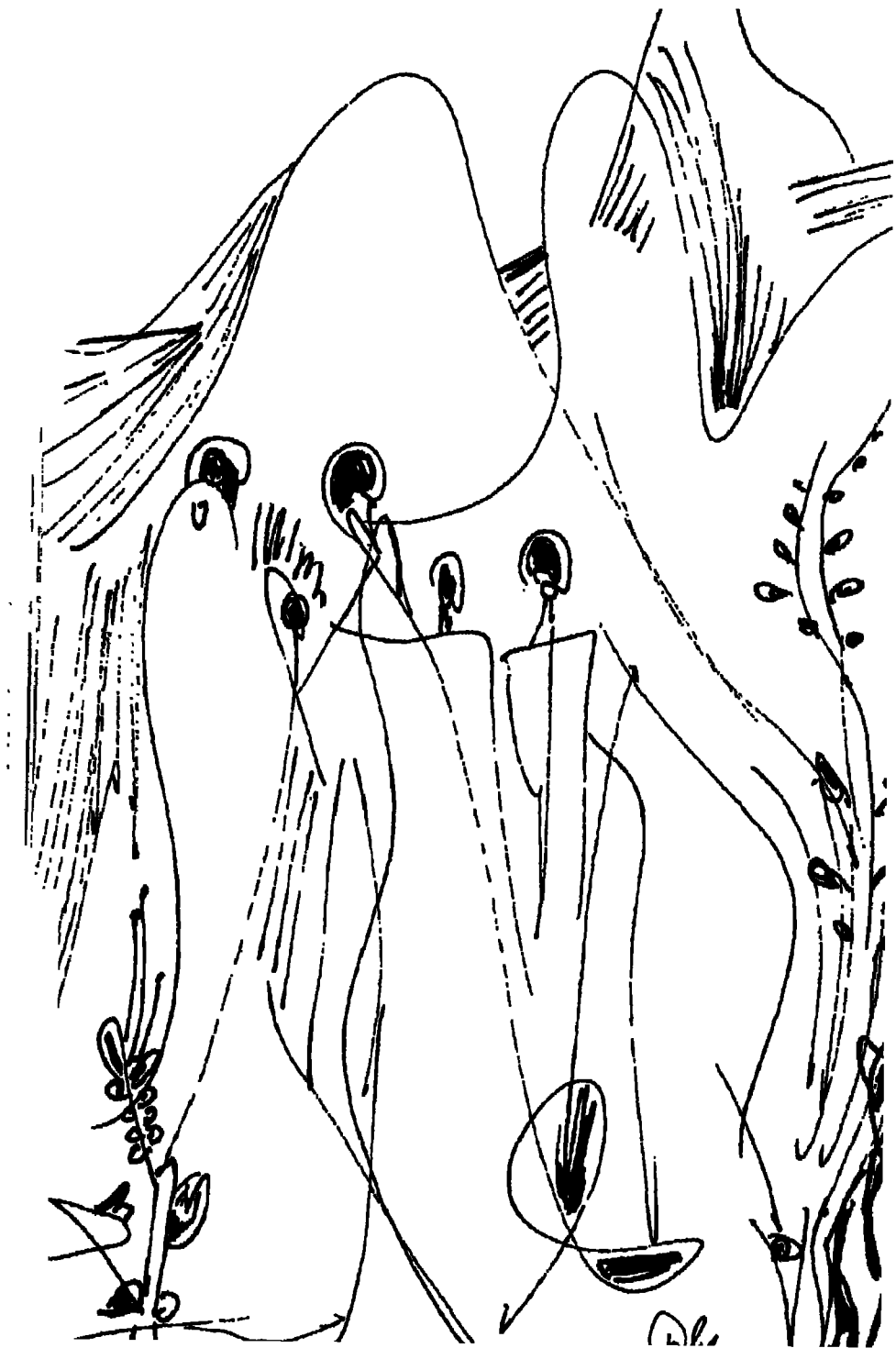
“Would that I were a reed trodden under
foot,

For that were better
than to be a lyre of
silvery strings
In a house whose
lord has no fingers

فلَعَمْرِي إن ذلك
لأفضلُ من أن أكون
قيثارةً أوتارُها من
فضة، في دار ربها بلا
أصابع

And whose children
are deaf.”

وأطفاله صُمُّ لا
يسمعون.



وانقضت سبعة أيام وسبع ليال لم يقترب فيها أحد من الحديقة، وخلا المصطفى بذكرياته وأشجانه، فقد انصرف عنه إلى شؤون الحياة، حتى أولئك الذين استمعوا إلى كلماته في حب وصبر.

لكن «كريمة» وحدها أقبلت والوجوم يغشي وجهها كأنه نقاب، وفي يدها كأسٌ وصفحة، كأسٌ فيها شراب يؤنس وحدته، وصفحةٌ عليها لحمٌ يشبع جوعه. وبعد أن سوّت هذه الأشياء أمامه، عادت أدراجها.

وألقي المصطفى بنفسه مرة أخرى في ظلال أشجار الحور البيضاء أمام رحبة الباب، وجلس يرقب الطريق. وبعد برهة رأى كأن سحابةً من الغبار قد انعقدت فوق الطريق وأخذت تزحف نحوه، ومن خلال السحابة ظهر مريدوه التسعة تتقدمهم «كريمة».

وتقدّم المصطفى ليلقاهم على الطريق، فمروا خلال الباب وكانوا جميعاً على خير حال، وكأنهم ما غادروه إلى سبيلهم إلا ساعة من الزمان.

وأقبل مريدوه وشاركوه وجبة عشائه الزهيد، ثم وضعت «كريمة» الخبز والسّمك على المائدة، وصبّت

Now, for seven days and seven nights no man came nigh the Garden, and he was alone with his memories and his pain; for even those who had heard his words with love and patience had turned away to th pursuits of other days.

Only Karima came, with silence upon her face like a veil; and with cup and plate within her hand, drink and meat for his aloneness and his hunger. And after setting these before him, she walked her way.

And Almustafa came again to the company of the white poplars within the gate, and he sat looking upon the road. And after a while he beheld as it were a cloud of dust blown above the road and coming toward him. And from out the cloud came the nine, and before them Karima guiding them.

And Almustafa advanced and met them upon the road, and they passed through the gate, and all was well, as though they had gone their path but an hour ago.

They came in and supped with him at his frugal board, after that Karima had laid upon



آخر ما تبقى من الخمر في
الكؤوس . وبينما هي
تصب الخمر توسلت إلى
المعلم قائلة : " إيدن لي أن
أمضي إلى المدينة فأتي
بخمر أملاً بها كؤوسكم من
جديد، فقد فرغ ما عندنا
منها .

وألقي المصطفي عليها
نظرة، وتمثلت في عينيه
رحلة وبلد بعيد وقال :
«حَسْبُكَ، فما عندنا يكفيننا الآن» .

وطعموا وشربوا وشبعوا .

وبعد أن فرغوا، تكلم المصطفي بصوت عريض
عميق كالبحر، ممتلئ كالمدّ الوافي في ضوء القمر،
وقال : «أي صحابي ورفاقي في الطريق، لا مفرّ اليوم
من الفراق، فما أكثر ما ركبنا متنّ البحار المخوفة، وما
أكثر ما تسلقنا أوعر الجبال مُرتقى، وما أكثر ما صارعنا
العواصف . ولقد بلّونا الجوع، غير أننا قد جلسنا أيضا

it the bread and the fish and poured the last of the wine into the cups. And as she poured, she besought the Master saying: "Give me leave that I go into the city and fetch wine to replenish your cups, for this is spent."

And he looked upon her, and in his eyes were a journey and a far country, and he said: "Nay, for it is sufficient unto the hour."

And they ate and drank and were satisfied.

And when it was finished, Almustafa spoke in a vast voice, deep as the sea and full as a great tide under the moon, and he said: "My comrades and my road-fellows, we must needs part this day. Long have we sailed the perilous seas, and we have climbed the



إلى مآدب العُرس . وما أكثر ما كابدنا العُري ، غير أننا
أيضا قد ارتدينا فاخر الثياب . حقا قد رحلنا بعيدا ،
ولكن أن لنا الآن أن نفترق ، وسوف تمضون جميعا في
سبيل ، أما أنا فقد حُقَّ عليّ أن أمضي وحدي في
سبيلي .

ولسوف تُباعد بيننا البحار والأراضي الشاسعة ، غير
أننا سنظل رفقاء سفر في رحلتنا إلى الجبل المقدس .

«واني لأودّ أن أزجي إليكم ثمرات قلبي وما تبقى
من حصاده ، قبل أن يذهب كل منّا في طريق :

«فلتَمضُوا في طريقكم صادحين بالغناء ، ولتُوجزوا
في كل أغنية ، فالأغنيات القصار فوق سفاهكم هي
وحدها التي ستحيا في قلوب الناس» .

«واذكروا الحقَّ الجميل في كلمات قليلة ، وحذار أن
تذكروا الحق المرير بأية كلمة . قولوا للصبية العذراء
التي يتألق شعرها في الشمس إنها ابنة الصباح . فإذا
رأيتم الضّرير فحذار أن تقولوا له إنه وظلام الليل شيء
واحد .

steepest mountains and we have wrestled with the storms. We have known hunger, but we have also sat at wedding-feasts. Oftentimes have we been naked, but we have also worn kingly raiment. We have indeed travelled far, but now we part. Together you shall go your way, and alone must I go mine.

“And though the seas and the vast lands shall separate us, still we shall be companions upon our journey to the Holy Mountain.

“But before we go our severed roads, I would give unto you the harvest and the gleaming of my heart:

“Go you upon your way with singing, but let each song be brief, for only the songs that die young upon your lips shall live in human hearts.

“Tell a lovely truth in little words, but never an ugly truth in any words. Tell the maiden whose hair shines in the sun that she is the daughter of the morning. But if you shall behold the sightless, say not to him that he is one with night.

“Listen to the flute-player as it were listening to April, but if you shall hear the critic and the fault-finder speak, be deaf as your own bones and as distant as your fancy.

“My comrades and my beloved, upon your way you shall meet men with hoofs; give them of your wings. And men with horns; give them wreaths of laurel. And men with claws; give them petals for fingers. And men with forked tongues; give them honey for words.

«اصغوا إلى نافخي
النَّاي كَمَا لَوْ كُنْتُمْ
تَصْغُونَ إِلَى أَنَاثِيدِ
نَيْسَانَ، أَمَا إِذَا اسْتَمَعْتُمْ
إِلَى النَّاقِدِ وَالْعِيَّابِ،
فَلْتَكُونُوا صُمًّا كَعِظَامِكُمْ
مُتْسَامِينَ كَخِيَالِكُمْ» .

«أي رفاقي وأحبابي،
لسوف تلتقون في
طريقكم بأناس ذوي
حوافر، فلتعطوهم من
أجنحتكم، وأناس ذوي
قرون، فلتتوجوهم
بأكاليل الغار، وأناس
ذوي مخالب،
فلتعوضوهم عن
أصابعهم بتلات الزهر،
وأناس ذوي السنة لاذعة
كالشوك، فلتهبوهم نظير
كلماتهم شهداً يقطر .



نعم ستلتقون بكل أولئك وأكثر، ستلتقون بالأعرج
بييع العصي، وبالضّرير يبيع المرايا، وبالأثرياء يمدّون
أيديهم بالسؤال عند باب المعبد.

فأعطوا الأعرج من خفتكم، وللضّرير من بصركم،
واعملوا على أن تبدلوا من أنفسكم للسائلين
الأثرياء فهم أشدّ الناس حاجة. أجل، فما من إنسان
يمدّ يده بالسؤال إلا إذا كان فقيرا حقا، وإن كان غنيا
واسع الثراء.

أي رفاقي وصحابي، أناشدكم بما بيننا من حب أن
تكونوا في الصحراء سُبُلًا تلتقي، تسير فيها السباع
والغزلان كما تسير أيضا الذئاب والحملان.

ولتذكروا هذا عني، أنا لا أعلمكم العطاء بل
الأخذ، ولا أعلمكم الجحود والنكران بل البرّ
والوفاء؛ لا أعلمكم الاستسلام بل الفهم والإدراك،
والابتسامة تعلقو شفاهكم.

أنا لا أعلمكم الصمت، بل أعلمكم أن تغنوا
بصوت غير جهير.

“Ay, you shall meet all these and more; you shall meet the lame selling crutches; and the blind, mirrors. And you shall meet the rich men begging at the gate of Temple.

“To the lame give of your swiftmess, to the blind of your vision; and see that you give of yourself to the rich beggars; they are the most needy of all, for surely no man would stretch a hand for alms unless he be poor indeed, though of great possessions.

“My comrades and my friends, I charge you by our love that you be countless paths which cross one another in the desert, where the lions and the rabbits walk, and also the wolves and the sheep.

“And remember this of me: I teach you not giving, but receiving; not denial, but fulfilment; and not yielding, but understanding, with the smile upon the lips.

“I teach you not silence, but rather a song not over-loud.

أنا أهدىكم إلى ذاتكم العليا التي وسعت الإنسانية
جمعاء .

ونفض من على المائدة، ومضى إلى الحديقة لا
يلوي على شيء، وسار تحت ظلال أشجار السرو،
بينما النهار يولي، وتبعه حوار يوه عن بُعد، فقد ناءت
قلوبهم بالهموم وانعدت ألسنتهم .

غير أن «كريمة» وحدها، ألفت بقايا المائدة، ثم
أقبلت عليه وقالت: «أودّ لو تسمح لي أيها المعلم بأن
أعدّ زاداً للغد ولرحلتك» .

فنظر إليها المصطفى بعينين تُبصران عوالم أخرى
غير هذا العالم، وقال: «أختاه، يا حبيبتى، إنه مكفولٌ
منذ الأزل . . . الطعامُ والشّرابُ مكفولان للغد كما
كانا مكفولين بالأمس، وكما هما مكفولان اليوم» .

«إني لراحلٌ، ولكني إن رحلتُ وفي عنقي حق لم
أنطق به، عاد هذا الحق نفسه فسعى إليّ وضمّني
وجمع أشتاتي المبعثرة في سكنات الخلود . وسأمثُلُ

“I teach you your larger self, which contains all men.”

And he rose from the board and went out straightway into the Garden and walked under the shadow of the cypress-trees as the day waned. And they followed him, at a little distance, for their heart was heavy, and their tongue clave to the roof of their mouth.

Only Karima, after she had put by the fragments, came unto him and said: “Master, I would that you suffer me to prepare food against the morrow and your journey.”

And he looked upon her with eyes that saw other worlds than this, and he said: “My sister, and my beloved, it is done, even from the beginning of time. The food and the drink is ready, for the morrow, even as for our yesterday and our today.

“I go, but if I go with a truth not yet voiced, that very truth will again seek me and gather me, though my elements be scattered

أمامك مرة أخرى لأخاطبك بصوت جديد، يخرج
إلى الحياة من قلب هذا السكون المطلق الذي لا
يعرف الحدود» .

«فإن كانت قد بقيت فضلةً من جمال لم أكشف لكم
عنها فسوف يُنادى عليّ مرة أخرى . أجل، سأنادي
باسمي المصطفى ، فأوافقكم بأية حتى تعلموا أنني قد
عدت لأحدثكم بكل ما ينقصكم ، لأن الله لا يحب أن
يحبب نفسه عن الناس ، أو أن تنطوي كلمته في أغوار
قلب الإنسان» .

«ولسوف أحيأ بعد الممات ، وألقي بأناشيدي في
آذانكم حتى بعد أن تردني موجة البحر المديدة إلى
أعماق البحر الرحيب» .

لسوف أجلس إلى موائدكم وإن غاب عنكم
جسدي .

وأمضي معكم إلى حقولكم ، روحاً خفية لا تراها
العين .

وأوافقكم عند المصطفى في عُقر دوركم ضيقاً لا
يُبصره أحد .

throughout the silences of eternity, and again shall I come before you that I may speak with a voice born anew out of the heart of those boundless silences.

“And if there be aught of beauty that I have declared not unto you, then once again shall I be called, ay, even by mine own name, *Almustafa*, and I shall give you a sign, that you may know I have come back to speak all that is lacking, for God will not suffer Himself to be hidden from man, nor His word to lie covered in the abyss of the heart of man.

“I shall live beyond death, and I shall sing
in your ears

Even after the vast sea-wave carries me
back to the vast sea depth.

I shall sit at your board though without a
body,

And I shall go with you to your fields, a
spirit invisible.

I shall come to you at your fireside, a guest
unseen.

فالموت لا يغيّر شيئاً سوى الأقنعة التي تحجب
وجوهنا.

الخطّاب سيظلّ خطّاباً.

والفلاح سيظلّ فلاحاً.

وذلك الذي شدا بأغنيته إلى الرياح سيظلّ يشدو بها
أيضاً إلى الأجرام في مسراها.

ووجم المريدون وكأنهم الحجارة، وحزنت قلوبهم
لقوله: «إنني لراحل». لكن واحداً منهم لم يمدّ يداً.
محاولاً استبقاءه، ولا تبعه أحد في مسيرته.

وانطلق المصطفى من حليقة أمه بخطى سريعة لا
يُسمع لها صوت، ومضى عنهم بعيداً في لحظة كورقة
دفعتها الريح العاصفة دفعاً، ثم تراءى لهم كأنما هو
ضوء شاحب راح يصعد إلى النّرى.

Death changes nothing but the masks that
cover our faces.

The woodsman shall be still a woodsman,

The ploughman, a ploughman,

And he who sang his song to the wind shall
sing it also to the moving spheres”

And the disciples were as still as stones,
and grieved in their heart for that he had said:
“I go.” But no man put out his hand to stay
the Master, nor did any follow after his
footsteps.

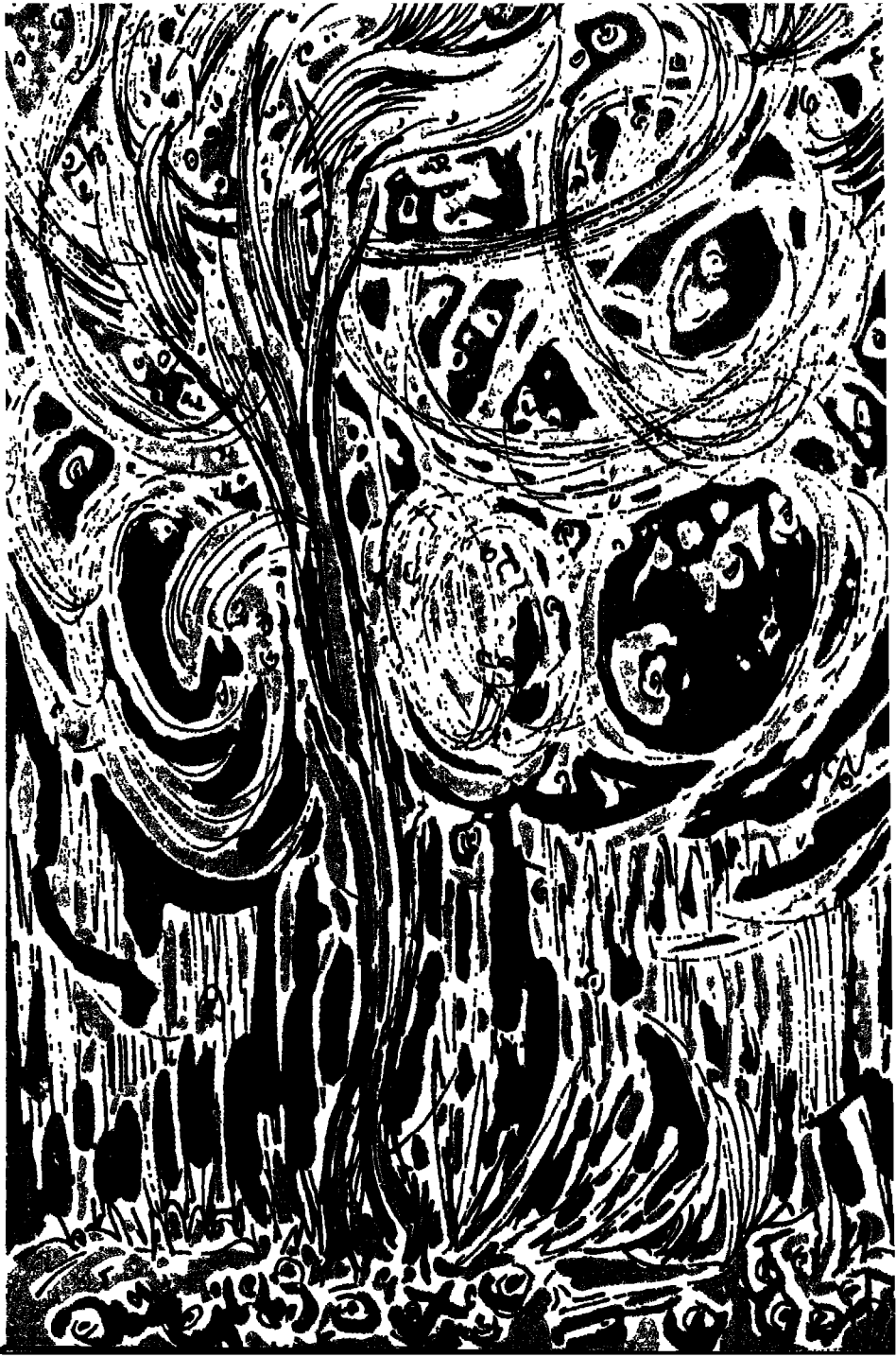
And Almustafa went out from the Garden
of his mother, and his feet were swift and
they were soundless; and in a moment, like a
blown leaf in a strong wind, he was far gone
from them, and they saw, as it were, a pale
light moving up to the heights.

And the nine
walked their ways
down the road.

But the woman
still stood in the
gathering night, and
she beheld how the
light and the twilight
were become one;
and she comforted
her desolation and
her aloneness with
his words: "I go, but
if I go with a truth
not yet voiced, that
very truth will seek
me and gather me,
and again shall I
come."

وهبط المريدون التسعة
إلى الطريق يمشون إلى
حال سبيلهم .

وظلت المرأة وحدها
واقفة في الليل
المتكاثف، ورأت كيف
يجتمع الضوء بغبشة
الغسق، وتعزّت في
وحشتها ووحدها
بقوله: «إني لراحل،
ولكنني إن رحلتُ وفي
عنقي حق لم أنطق به،
عاد هذا الحق نفسه
فسعى إليّ وضمّني،
فأعود مرة أخرى» .



وكان المساء قد حلّ. وبلغ المصطفى التلال،
وقادته قدماه إلى غمرة الضباب، ووقف بين
الصخور وأشجار السرو البيضاء محتجبا عن كل
شيء، ثم هتف قائلا:

إيه أيتها الغمامة، يا أخت روعي، ما أنت إلا
أنفاس ناصعة لم تستقر بعد على حال.
إني أعود إليك، أنفاسا ناصعة بلا صوت،

بل كلمة مكنونة لم ينطق بها لسان.

إيه أيتها الغمامة، يا أخت روعي ذات الجناح، لقد
اجتمع شملنا الآن.

ولن يفرق شملنا أحد حتى يوم آخر يكون للحياة،

حين ينشرك فجره على مهاد الحديقة قطرات من
الندى.

وحين يطرحني رضيعاً على صدر امرأة،

فنكون من الذاكرين.

إيه أيتها الغمامة، يا أخت روعي، إني أعود قلبا
يصغي من أعماقه، كقلبك.

And now it was eventide. And he had reached the hills. His steps had led him to the mist, and he stood among the rocks and the white cypress-trees hidden from all things, and he spoke and said:

“O Mist, my sister, white breath not yet held in a mould,

I return to you, a breath white and voiceless,

A word not yet uttered.

“O Mist, my winged sister mist, we are together now,

And together we shall be till life’s second day,

Whose dawn shall lay you, dewdrops in a garden,

And me a babe upon the breast of a woman,

And we shall remember.

“O Mist, my sister, I come back, a heart listening in its depths,

Even as your heart,



ورغبةً تختلج بلا هدف، كرجبتك،

وفكرةً لم نكتمل، فكفرتك.

إيه أيتها الغمامة، يا أخت روعي، وأولَ مَنْ ولدته
أمي.

ما زالت يداي مُمسكةً بالبذور الخضراء التي شئت
لي أن أنثرها.

وشفتاي قد جمدتا على الأغنية التي شئت لي أن
أنشدها.

ولم آت إليك بثمرة، ولم أحمل إليك صدَى.

فقد عميت يداي وجمدت شفتاي.

إيه أيتها الغمامة، يا أخت روعي، لشد ما أحببتُ
الدنيا، وأحبّتي الدنيا.

فقد تمّثلت بسماتي كلها على شفتيها، وانسابت
ذموعها جميعاً من مآقي.

على أنه قد وقف بيني وبينها حاجزٌ من السكون،

لم تشأ هي أن تقطعه،

A desire throbbing and aimless even as
your desire,

A thought not yet gathered, even' as your
thought.

“O Mist, my sister, first-born of my
mother,

My hands still hold the green seeds you
bade me scatter,

And my lips are sealed upon the song you
bade me sing;

And I bring you no fruit, and I bring you
no echoes,

For my hands were blind, and my lips
unyielding.

“O Mist, my sister, much did I Love the
world, and the world loved me,

For all my smiles were upon her lips, and
all her tears were in my eyes.

Yet there was between us a gulf of silence
which she would not abridge

ولم أستطع أنا عبوره .
إيه أيتها الغمامة ، يا أختَ روحي ، يا أختَ الروح
الخالدة .

إنني شدوتُ بأغانيّ العريقة لأطفالي الصغار .

ولقد أصغوا إليها وعلتُ وجوههم دهشة .

منْ يدري لعلمهم ينسون الأغنية في غد .

ولست أدري إلى منْ تحملُ الريحُ الأغنيةَ بعدهم .

فلم أكن أنا صاحبها ، وإن سرّت في قلبي

واستقرّت لحظة على شفّتيّ .

إيه أيتها الغمامة ، يا أختَ روحي .

لقد نزلت السكينة على قلبي

على الرغم من كل ما مرّ بي .

وحسبي أنني غنّيتُ لأولئك الذين وكّدوا بالأمس .

فإن لم يكن الغناء في الحق غنائيّ ،

And I could not overstep.

“O Mist, my sister, my deathless sister
Mist,

I sang the ancient songs unto my little
children,

And they listened, and there was
wondering upon their faces

But to-morrow perchance they will forget
the song.

And I know not to whom the wind will
carry the song,

And though it was not mine own, yet it
came to my heart

And dwelt for a moment upon my lips.

“O Mist, my sister, though all this came to
pass,

I am at peace.

It was enough to sing to those already
born.

And though the singing is indeed not
mine,

فقد انبثق من رغبات قلبي الدفينة .
إليه أيتها الغمامة ، يا أختَ روحي ، أيتها الغمامة
الشقيقة .

أنا الآن أنت .

ولن أكونَ ذاتاً بعد .

الأسوارُ قد تداعت .

والقيود قد تفككت .

وإني لأصعدُ إليك ، ضباباً أخرى .

ومعا سنطفو على أديم البحر ، حتى يوم الحياة
الأخر ،

حين ينشرك فجره على مهاد الحديقة ، قطراتٍ من
الندى ،

وحين يطرحني رضيعاً على صدر امرأة .

Yet it is of my heart's deepest desire.

“O Mist, my sister Mist,

I am one with you now.

No longer am I a self.

The walls have fallen,

And the chains have broken;

I rise to you, a mist,

And together we shall float upon the sea
until life's second day,

When dawn shall lay you, dewdrops in a
garden,

And me babe upon the breast of a woman.”



« أقوال النقاد في هذا الكتاب »



أسلوب «المعلم» في «النبى» مهما يكن فيه من روح الشعر يظل أقرب إلى طبيعة الفكر الذي يتأمل أحوال المجتمع والسلوك والأخلاق، أما أسلوب «الصوفي» أو «الناسك» الذي خلا إلى نفسه في «حديثه» أربعين يوماً قبل أن يخرج إلى الناس، فنشر شعري ذو طابع وجداني غالب في الرؤية والتعبير والتصوير، يتحدث عن أمور مطلقة يتأمل فيها وجود الإنسان وصلته بالطبيعة وبالخالق، ويتحدث عن حنينه إلى عالمه الروحي الأول الذي يصعد إليه في نهاية الكتاب خلال ضبابية يغني لها ويمتزج بها.

و حين يتصدى المترجم لمثل هذه النظرات الروحية
المجردة وأسلوبها الشعري الرمزي أو الرومانسي يضع نفسه
موضع الكاتب ويحاول أن يرى الحياة رؤيته الشعرية
والصوفية ويعبر - كما عبر - بمفردات الشعر وتراكيبه
الأسلوبية ومجازاته وأخيلته وإيقاعه . وترجمة الدكتور
ثروت لتلك المقاطع ذات الطابع الشعري من «حديقة النبي»
نموذج للترجمة التي تجمع بين معاني النص وما وراءها من
رموز، وتوفق إلى المقابل العربي الصحيح والجميل للنص
الإنجليزي، دون أن يغريه ثراء اللغة العربية في هذا المجال
بالابتعاد عن الأصل أو الإضافة إليه إلا ما تقتضيه أحيانا
طبيعة الإيقاع أو توازن الجمل لتكون الترجمة أقرب ما
تكون إلى طبيعة اللغة العربية، أو ما يجلبه المترجم لبعض
المفردات أو التراكيب الأسلوبية . وقد يوضح ما في ترجمة
الدكتور ثروت من حرص على الأمانة، وعلى ما في نشر
جبران من سمات الشعر، وما في الترجمة من قدرة على
اختيار المفردات وبناء الأسلوب ورسم الصور المجازية دون
خروج على طبيعة النص، أن نقارن بين مقطوعة من كتاب
جبران وترجمتها عند الدكتور ثروت، تلك الترجمة التي
تبقى نصاً عربياً مكتمل الخصائص في مفرداته وأسلوبه
 وإيقاعه يجاري ما في نص جبران من تلك الخصائص،
 وينقل إلى القارئ العربي روح المؤلف وسمات أسلوبه
 الفنية .

د . عبد القادر القط

« إننا لنجد المتعة والفائدة جميعاً في قراءة المقدمة المستفيضة التي ضمّنها الدكتور ثروت عكاشة عصارة قلبه وعلمه حتى يصل إلى أغوار ما هو جدير بالتقدير والإعجاب في أعمال جبران ، ويبرزه للقارئ من خلال المقدمة التي تضم قائمة مراجع قيمة مختارة، ولكننا إن أردنا أن نقف على موهبة المترجم فينبغي علينا أن نقرأ النص المنقول إلى العربية لنرى كيف وفق المترجم في نقل إيقاع الجملة الإنجليزية والإلقاء الملحن الذي يربط بين هذا الشعر وما تنشده جوقة الكوروس في المأساة الإغريقية، وهذا الأسلوب الإلماعي الحافل بالمفارقات الذي يعيد إلى الأذهان أسلوب [هكذا تكلم زرادشت]. والترجمة عن مؤلف مثل جبران قد تحدو بالمترجم أن يتردى في خطأ جسيم وهو الخضوع لإغراء استخدام أساليب تعبيرية عتيقة في اللغة العربية وكلمات متقكرة عفى عليها الدهر لإضفاء العمق، مع اختيار الأسلوب الغنائي للشعر، لكن الدكتور عكاشة نجح في تجنّب مثل هذه العثرة بعناية مقصودة. فلقد احتفظت جملة العربية بانسياب الجمل الإنجليزية عينه، كما احتفظت بطابعها الوعظي نفسه، وبتدقها النبيل، وبذلك النغمة الهامسة التي تنزع إلى الحزن والتي تغلّف أسلوب جبران دوماً»

الأب جورج فنواي

(عن مقال له بالفرنسية)

«أكاد أقول إن موعظة نبي جبران لا تترجم ترجمة أصيلة إلا بطريقة ثروت عكاشة لأنها نسج على «موعظة الجبل»، وهي دليل على أن الدكتور عكاشة لا يتقن الإنجليزية فحسب بل ويحسّها بوجدانه . . فلنقل إذن إنه ترجم فأجاد الترجمة في عامة مواضع «حديقة النبي». وأول مظهر من مظاهر هذه الإجابة أنه حافظ على روح الكاتب وطابعه . . فأطلع القارئ العربي على نمط في الشعور والتفكير والتعبير لم نألف أن نراه في غير التراث الرومانسي والتراث الرمزي . وليس هذا مصادفة لأن ثروت عكاشة فيما يبدو مفتن بجبران افتتاناً قوياً فتجاوب معه بحسّه ووجدانه وخياله . وإني إذ أحبه فلائه عناية لا تتجاوزها عناية بهذا الكاتب الذي يعدّ فيما نعرف من أقرب كتّابنا إلى التراث العالمي . وتحمية أخرى للدكتور المترجم لما قام به من إحياء للأدب الرومانسي عن طريق عنايته بأعمال جبران» .

د . لويس عوض

«لفتني من البداية أن الترجمة محتفظة بروح النص أمينة على دلالاته مبقية على رمزيتها بكل إيحاءها المثير» .

بنت الشاطيء

«ترجمة رائعة امتازت بالدقة في التزام الأصل مع المحافظة على المعاني في أسلوب عربي قويم خال من العجمة والاضطراب مما يستحق التقدير والثناء والإجلال».

أحمد بدران

«وأي الحق لست أدري أشيد بدقة الترجمة التي عاشت مع جبران وغاصت إلى أعماق نفسه وأغوار البشرية وفصلت لعرائس الوحي والخيال عنده أبرادا من الأسلوب العالي جلت جمالها أروع جلوة، أم أشيد بالمقدمة العظيمة الزاخرة بالعلوم والمعارف مسرودة بأحكام بيان وأعذبه. ويتقاضاني الحق أن أقول إن مقدمة دكتور عكاشة لكتاب «حديقة النبي» هي من أكمل ما عرفنا حتى اليوم من مقدمات تعدّ من الأصول الثوابت فيما عرضت له من علم وأدب، ولا أعجب فأنا تفتتقت عن صدر واع وذهن خلاق وقلم طبع سيّال».

عادل الغضبان

«لقد أدرك الدكتور ثروت عكاشة روح جبران فكتب الترجمة وكأنه يكتب أسطورة شرقية بكل ما فيها من رموز وإيحاءات. لم يكن يترجم النص ترجمة حرفية، وإنما كان يتصور وقع الجملة الأصلية على قارئها وما تحدته فيه من أثر، ثم يبحث عن الجملة العربية المقابلة في إحداث نفس الأثر حتى يقع عليها فيصوغها في إطار الأسلوب الأسطوري الذي نسج منه ترجمته. ولهذا قد تجد مرادفات عربية لا مقابل لها في الأصل الإنجليزي، ولكنك عندما تحاول أن تصوغ الجملة الإنجليزية صياغة أخرى لا تستطيع، وأعتقد أن هذا أعلى مراتب الترجمة، وأنه لا يمكن للمترجم أن يكون شفافاً كل هذه الشفافية بالنسبة لروح الكاتب الذي ينقل عنه ما لم يكن قد قرأ كل أعماله وعاش فيها طويلاً واختمرها حتى أصبحت جزءاً من كيانه»

أحمد عباس صالح

ثبت ببليوجرافي لصاحب هذه الترجمة

موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى (*) .

دراسة	طبعة أولى ١٩٧١	١ - الفن المصري القديم : العمارة
دراسة	طبعة ثالثة ١٩٩٩	
دراسة	طبعة أولى ١٩٧٢	٢ - الفن المصري القديم : النحت والتصوير
	طبعة ثالثة ١٩٩٩	
دراسة	طبعة أولى ١٩٧٦	٣ - الفن المصري القديم : الفن السكندري والقبلى
	طبعة ثانية ٢٠٠٠	
	طبعة أولى ١٩٧٤	٤ - الفن العراقى القديم
دراسة	طبعة أولى ١٩٧٨	٥ - التصوير الإسلامى : الدينى والعربى
دراسة	طبعة أولى ١٩٨٣	٦ - التصوير الإسلامى : الفارسى والتركى
دراسة	طبعة أولى ١٩٨١	٧ - الفن الإغريقى
دراسة	طبعة أولى ١٩٨٩	٨ - الفن الفارسى القديم
دراسة	طبعة أولى ١٩٨٨	٩ - فنون عصر النهضة (الرئيسانس والباروك)
دراسة	طبعة فاخرة ١٩٩٦	الرئيسانس
دراسة	طبعة فاخرة ١٩٩٧	الباروك
دراسة	طبعة فاخرة ١٩٩٨	الروكوكو
دراسة	طبعة أولى ١٩٩١	١٠ - الفن الرومانى

(*) (الصور الملونة بالطبعات الأولى من الأجزاء العشرة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونيسكو»).

- ١١- الفن البيزنطي دراسة طبعة أولى ١٩٩٣
- ١٢- فنون العصور الوسطى دراسة طبعة أولى ١٩٩٤
- ١٣- التصوير المغولي الإسلامى فى الهند دراسة طبعة أولى ١٩٩٥
- ١٤- الزمن ونسيج النعم دراسة طبعة أولى ١٩٨٠
- (من تشيد أبولو إلى أولمبييه ميسيان) دراسة طبعة ثانية ١٩٩٥
- ١٥- القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية دراسة طبعة أولى ١٩٨١
- دراسة طبعة ثانية ١٩٩١
- ١٦- الإغريق بين الأسطورة والإبداع دراسة طبعة أولى ١٩٧٨
- دراسة طبعة ثانية ١٩٩٤
- ١٧- ميكلائنجلو دراسة طبعة أولى ١٩٨٠
- ١٨- فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى دراسة طبعة أولى ١٩٧٤
- [أثر إسلامى مصور] دراسة طبعة ثانية ١٩٩٢
- ١٩- معراج نامه [أثر إسلامى مصور] دراسة طبعة أولى ١٩٨٧

أعمال الشاعر أوئيد

- ٢٠- ميتامورفوزيس [مسخ الكائنات] ترجمة طبعة أولى ١٩٧١
- دراسة طبعة رابعة ١٩٩٧
- دراسة طبعة خامسة ١٩٩٧ (مكتبة الأسرة)
- ٢١- آرس أماتوريا [فن الهوى] ترجمة طبعة أولى ١٩٩٥
- دراسة طبعة ثالثة ١٩٩١

أعمال جبران خليل جبران

- ٢٢- النبى : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٥٩
- دراسة طبعة تاسعة ١٩٩٩
- ٢٣- حديقة النبى : لجبران خليل جبران ترجمة طبعة أولى ١٩٦٠
- دراسة طبعة ثامنة ١٩٩٩

- ٣٦- السيد آدم : ليات فرانك ترجمة طبعة أولى ١٩٤٨
 طبعة ثانية ١٩٦٥
- ٣٧- سروال القس : لثورن سميث ترجمة طبعة أولى ١٩٥٢
 طبعة ثانية ١٩٧٦
- ٣٨- الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر ترجمة طبعة أولى ١٩٤٢
 طبعة ثانية ١٩٥٢
- ٣٩- قائد البانزر : للجنرال جوديريان ترجمة طبعة أولى ١٩٦٠
 ٤٠- حرب التحرير تأليف بالمشاركة طبعة أولى ١٩٥١
 طبعة ثانية ١٩٦٧
- ٤١- تربية الطفل من الوجهة النفسية ترجمة بالمشاركة طبعة أولى ١٩٤٤
- ٤٢- علم النفس فى خدمتك ترجمة بالمشاركة طبعة أولى ١٩٤٥
- ٤٣- مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانيين دراسة طبعة أولى ١٩٨٤
 والأدباء (١٨٠٠- ١٩٠٠)
- ٤٤- مذكراتى فى السياسة والثقافة تأليف طبعة أولى ١٩٨٨
 طبعة ثانية ١٩٩٠
 طبعة ثالثة ٢٠٠٠
- ٤٥- المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية إعداد وتحرير طبعة أولى ١٩٩٠
 [إنجليزى- فرنسى- عربى]
- ٤٦- موسوعة التصوير الإسلامى دراسة طبعة أولى ١٩٩٠

بالفرنسية

Ramsès Re-Couronné: Hommage Vivant au Pharaon Mort, " -٤٧
 UNESCO ' 1974.

بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of .٤٨
Mankind's Cultural Heritage. "UNESCO " 1972.

The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on .٤٩
Islamic Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park Lane
Publishing Press. London 1981.

The Miraj - Mameh : A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid .٥٠
Studies and other Essays Presented to I.E.S. Edwards, The Egypt
Exploration Society. London 1988.

أبحاث

The Portrayal of The Prophet. The Times Literary Supplement, 31 *
December 1976.

Problématique de la Figuration dans l'art Islamique. *

La Figuration Sacrée.

La Figuration Profane.

Plastique et musique dans l'art pharaonique.

Wagner entre la théorie et l'application.

سلسلة محاضرات ألقى بالكوليج ده فرانس بباريس

خلال شهري يناير ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire du Collège de France , 73 Année. Paris, 11, Place Marcelin
Bertholet 1973.

* المشكلات المعاصرة للفنون العربية . مؤتمر منظمة اليونسكو المتعقد بمدينة الحمامات .
تونس ١٩٧٤ .

* حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ .
الكويت .

* رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقى بنادى الجسرة الثقافي بالدوحة . (دولة
قطر) . فبراير ١٩٨٩ .

- * سبيل إلى تميم مدن التكنولوجيا «تكنوبوليس» في الوطن العربي . دراسة لندوة العالم العربي أمام التحدي العلمي والتكنولوجي . معهد العالم العربي بباريس . يونيو ١٩٩٠ .
- * إطلالة على التصوير الإسلامي العربي والفارسي والتركي والمغولي . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي بأبي ظبي . أبريل ١٩٩١ .
- * الدولة والثقافة . وجهة نظر من خلال التجربة . محاضرة بندوة الثقافة والعلوم . دبي . نوفمبر ١٩٩٣ .
- * التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحریم . بحث ألقى في الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان . الأردن . في المدة من ٥ إلى ٧ يوليـه ١٩٩٥ .
- * تساؤلات حول هوية التصاوير الجدارية في بايستوم . بحث ألقى في مؤتمر «مصر إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى» المنعقد بروما في المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ .
- * الفن والحياة . محاضرة أقيمت بيهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة في ٦ مارس ١٩٩٦ . الموسم الثقافي الفني لجامعة القاهرة ، ثم في المجمع الثقافي بأبي ظبي . أبريل ١٩٩٦ .
- * نظرية الفن . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي . إبريل ١٩٩٦ .
- * التطهر النفسي من خلال الفن . محاضرة أقيمت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضر عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يوليـه ١٩٩٧ .
- * فنون عصر النهضة «الرنيسانس» . محاضرة أقيمت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضرة عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يوليـه ١٩٩٧ .
- * فنون عصر النهضة «الباروك» . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي في ١١ نوفمبر ١٩٩٧ .
- * فنون عصر النهضة «الروكوكو» . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي في ١٠ مارس ١٩٩٩ .

مطابع الشرقة

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٩٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩-٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)